سياسات نزع الطفولة ("اللا_طفلنة"): تعقُّب آثار الكولونياليّة الإسرائيليّة

نادرة شلهوب - كيـڤـوركيان

مقدّمة

إقدامي على دراسة الطفولة في السياق والحيّز الفلسطينيّين كان بمثابة تراكم لدراساتي في فلسطين، وخاصّة في القدس المحتلّة، وتوثيق وتحليل كثافة جرائم إسرائيل ضدّ الفلسطينيّ، شعبًا وأرضًا وحياةً. فقد دفعني المفكّرون/ات والباحثون/ات النقديّون/ات (على سبيل المثال: Abu El-Haj, 2001; Abu-Lughod, 2013; Abu-Lughod & Sa'di, 2007; Abu-Rabia-Queder, 2019; Barakat, 2018; Erakat, 2019; Hammami, 2015; Y. Jabareen, 2017; Khalidi, 2013; Manna, 2017; Nasasra, 2017; Rouhana, 2017; Sa'di, 2016; Said, 1979; Salamanca, 2011; Zureik, 2010)، الذين كشفوا سياساتها العاملة باطّراد على محو الفلسطينيّ من أجل إنشاء اليهوديّ المتخيَّل، إلى التعمُّق في دراسة ماهيّة الدولة الاستيطانيّة _ الاستعماريّة والخوض في البحث، والعمل، والتدخّل، لتحليلها. وقد أثارت أبحاثي المتعلّقة باجتياح الحميميّة البيتيّة والمجتمعيّة،[1] وباستمراريّة ملاحقات الدولة البيو_سياسيّة من خلال القوانين المُلغِيَة لحقّ الفلسطينيّ في أرضه، وبالسياسات الديمچرافيّة التي تُعرِّف الحوامل وحديثات الولادة "خطرًا أمنيًّا"، مساءلات جمّة حول فتك الدولة بالنسيج الاجتماعيّ ومحاولات تفكيكه وضربه في الصميم. إنّ تفكيك إستراتيجيّات وجرائم الدولة المعتمَدة، وسياساتها القامعة للبناء المجتمعيّ وللتواصل الاجتماعيّ، وربطها بما حدث للأطفال في سياقات استيطانيّة استعماريّة أخرى، دفعني إلى التعمّق أكثر في الطفولة الفلسطينيّة، وتحليلها نفسيًّا _ اجتماعيًّا وسياسيًّا (Shalhoub-Kevorkian, 2006, 2008, 2009, 2012a).

مع بداية خوضي في البحث في هذا المجال، قمت بمراجعة معمّقة للدراسات والتوجُّهات الفكريّة المعتمِدة على النظريّة الاستيطانيّة الكولونياليّة وتلك المرتبطة بدراسات العنصريّة، والتي طرحت تساؤلات فكريّة إزاء الطفولة كحيّز مهمّ في صراعات القوى من قِبل القائمين على المشروع السياديّ الاستيطانيّ الكولونياليّ (Battell Lowman & Barker, 2016; De

1. من ذلك: اقتحام وهدم المنازل والمدارس، والانتهاكات ضدّ الأطفال والنساء والمجتمع عمومًا.

(Leeuw, 2009; Hinton et al., 2014; Jacobs, 2005, 2009; Moses, 2004). خاضت هذه الدراسات معمَّقًا في فَهْم ما يسمّى سياسات "العناية" وَ "الحماية" وَ "الإنقاذ" للأطفال في سياق المشاريع الاستيطانيّة، مشيرة إلى ادّعاءات القائمين على هذه المشاريع أنّهم ينوون "النهوضَ حضاريًّا" بالأطفال الأصلانيّين، وحمايتَهم من مجتمعاتهم ومن ظروفهم الأليمة، "غير المتحضّرة"، أو "المتخلّفة"، لصقلِهم وَفقًا للمعايير المتحَضِّرة للمستعمِر الأوروبيّ، ولمصالحه. ونجد ذلك في سياقات استيطانيّة كولونياليّة عدّة، منها أستراليا وكندا وأمريكا وإيرلندا الشماليّة، حيث تحاجج الكثير من الدراسات النقديّة بأنّ الأنظمة الاستيطانيّة الكولونياليّة ادّعت أنّها تسعى إلى "صقل" الطفل، ولكن الهدف كان محو تاريخه وهُويّته وكِيانه. إنّ دراسة الطفولة في السياق الاستيطانيّ _ الاستعماريّ، التي تدّعي "الإنقاذ والحماية" كما شرحها وورد تشرتشل (Churchill, 2004)، هي سياسات تسعى في سياق أمريكا الشماليّة إلى قتل الهنديّ الأحمر، والهُويّة الهنديّة في داخل الطفل، وإلى "إنقاذ الطفل". أنطلقُ من هذه المقولة لمناقشة ما يجري في فلسطين عمومًا، وفي القدس على وجه الخصوص، حيال الأطفال متسائلةً، في هذا الصدد: هل فعلًا يعمل النظام الكولونياليّ الإسرائيليّ _ الصهيونيّ على قتل الفلسطينيّ الذي في داخل الطفل، وإنقاذ الطفل، أَم إنّه يعمل على قتل الفلسطينيّ داخل الطفل "دون إنقاذه" أو "دون الاهتمام بإنقاذه"، أَم ربّما تكون الطفولة هي المستهدَفة؟

يعتمد تنظيري في هذا الفصل على كتابي الذي يحمل العنوان "الطفولة المحتجَزة، وسياسات نزع الطفولة" (أو ما أسمّيه أيضًا "اللا_طَفْلَنة"). يتمحور الكتاب في الطفولة الفلسطينيّة في ظلّ السيادة الصهيونيّة في فلسطين المحتلّة، ليناقش أساليب استهداف المنظومة الحاكمة بأيديولوجيّتها العنصريّة للأطفال، واستخدام أساليب الحَوْكمة، والقمع، والتعنيف ضدّهم -سواء أكان ذاك بواسطة القوانين المشرّعة والمعلنة، أَمْ بالقوانين غير المشرّعة وغير المعلَنة- شارحةً آليّات عمل أجهزة الدولة وفروعها الأمنيّة والعسكريّة، وعبْر ذلك اختراقاتها، وحَوْكمتها في استغلال ونزع الطفولة.

يطرح الفصل مدخلًا نظريًّا للمصطلح "نزع الطفولة"، من خلال تفكيك المنطق السياديّ الكولونياليّ للمشروع الصهيونيّ، المنحوت على حياة الطفل الفلسطينيّ وجسده ومستقبله، ويناقش تعامُلَ المستعمِر مع الطفولة الفلسطينيّة كرأسمال سياسيّ. المقصود برأس المال السياسيّ في سياق اللا_طَفْلَنة الاستعماريّة هو تعريف لا_طَفْلَنة الأطفال كمورد سياسيّ للدولة الاستعماريّة، بحيث يُضَمّ الأطفال إلى قائمة الموارد التي تستخدمها الدولة لتدعيم سلطتها ونفوذها. من هذا المنظور، تحدَّد الطفولة الفلسطينيّة كمساحة محتلّة ومستخدَمة لمصلحة إنتاج السلطة والنفوذ الاستعماريَّيْن. معنى هذا أنّ منظومة

اللا_طَفْلَنة تنضاف إلى سائر منظومات وإستراتيجيّات الموارد السياسيّة أو "رأس المال السياسيّ" المستثمَر في الحسابات السياسيّة _ الاستعماريّة الرامية إلى تقوية نفوذ المستوطِن في إقصاء الأصلانيّين، وذلك ابتغاءَ محو حقوق الأطفال وتحشيد الرأي العامّ لسحب أحقّيّةِ الطفل لحقوقه والاعترافِ به كموجود في المكان. فالنظر إلى الطفولة كرأس مال سياسيّ يؤكّد أنّ المجتمع -بعلاقاته وأطفاله وعائلاته ونسائه ورجاله- هم عملة سياسيّة _ اجتماعيّة تُعَنَّف وتُباح لمصلحة الدولة الاستيطانيّة. ومن هنا فإنّ منظومة لا_طَفْلَنة الطفل الفلسطينيّ تصبح موردًا سياسيًّا يترجَم إلى قدرة وفعل وعنف سياسيّ لنزع حقوق الفلسطينيّين كأصلانيّين. بِذا يصبح من المتاح ممارسة العنف ضدّ الطفل واستلاب مكانه وعرضه للذات وللعالم على أنّه لا_طفل، وبدون استحقاقات. يوظَّف هذا المورد، أي منظومة لا_طَفْلَنة الأطفال الفلسطينيّين، على نحوٍ مؤثّر محلّيًّا وعالميًّا لتقوية المبادئ السياسيّة للاستيطان والاستلاب.

ما أقصده أنّ السطوةَ على حياة الطفل الفلسطينيّ، وتحويلَه عبْر اللا_طَفْلَنة إلى رأس مال اجتماعيّ _ سياسيّ، يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بعنف المستعمِر بشقَّيْه المادّيّ والمعنويّ باختلاف المضمون والأداء، كسلاح فتّاك يُستخدَم ويُستغَلّ من قِبل المشروع الصهيونيّ وسياساته وآليّاته العسكريّة لإيذاء الفلسطينيّين في مساحة اجتماعيّة _ سياسيّة حميميّة وغالية، ألا وهي أطفالهم. وأجادل أيضًا بأنّ تحليل الطفولة والأطفال كرأس مال سياسيّ في فلسطين من منظور الاستيطان الكولونياليّ ونظريّات العِرْق والعنصريّة يساعدنا في فهم جوانب أعمق لسيرورة زعزعةِ الثبات الاجتماعيّ _ النفسيّ _ السياسيّ، واقتلاعِ الفلسطينيّ من مكانه ومكانته، بما في ذلك اقتلاعه من أرضه وبيته وبيئته وعلاقاته الاجتماعيّة وتشتيت الأقرباء والعائلة، وكبحِ الممارسات الدينيّة، وتشويهِ الهُويّة الوطنيّة، ويبلغ ذلك حدّ محاولات طمس هُويّته وحقوقه في وطنه، ومحوه سياسيًّا.

من هُنا، في بداية هذا الفصل يجدر التذكير بالمبدأ الناظم للمشروع الاستيطانيّ الكولونياليّ، من خلال منظومته المزدوجة والمتزامنة، أي "الهدم والبناء". فالهدم والمحو يجريان ضدّ الفلسطينيّ؛ بينما يجري استلاب الأرض والبناء لصالح الهُويّة المتخيَّلة للمستوطن؛ الهُويّة التي أنشأها لذاته ولمجموعته. إنّ سيرورة محو الذوات الأصلانيّة مقابل إنشاء ذات المستوطن اليهوديّ المتخيَّلة، اعتمادًا على تحليلات نقديّة سابقة، تشدّد على الامتيازات العنصريّة التي تعطيها الدولة الصهيونيّة لليهوديّ، من حيث مَرْكَزة جميع منظوماتها لمَوْضَعته في مكانة متفوّقة (Rouhana, 2017)، ومن أجل تدعيم منظومة محو المشهد الأصلانيّ وإقصاء أطفاله وأفراده أيديولوجيًّا، وقانونيًّا، ومادّيًّا من خلال رؤيتهم عبْر صُوَر عِرْقيّة/ إثنيّة "متدنّية" وَ "غير متحضّرة" تحفّز مخيّلة المستوطن ودولته، وتدفع بعمليّات الاقتلاع

قُدُمًا (Makdisi, 2010). إنّ توالي الاقتلاع وتنوُّعَه يجذِّران أيديولوجيّات الاستحواذ الاستيطانيّة _ الاستعماريّة، ويطوّران إستراتيجيّاتِ محوٍ قانونيّةً وسياسيّةً واقتصاديّةً _ اجتماعيّةً وعمليّةً وَفق قوانين المستعمِر وممارساته.

من هنا أجادل بأنّ ممارسات الدولة الصهيونيّة ونظرتها إلى الأطفال الفلسطينيّين استُخدِمتا أداتَيْن سياسيّتَيْن بحسب تسويغات العنف الاستعماريّ بهدف هدم النفس والقدرة الفلسطينيّة من خلال استغلال حلقة غالية سياسيًّا _ اجتماعيًّا ونفسيًّا؛ ألا وهي الأطفال والطفولة. إنّ هذه الممارسات العنيفة أسهمت تاريخيًّا، وما زالت تسهم، من خلال قوّة الدولة الصهيونيّة عالميًّا وعلاقاتها الدوليّة، في تعزيز سيرورة "نزع الطفولة" وتشويهها؛ وذلك من خلال عَرْقَنة ("Racializing") الأطفال واعتبارهم تهديدًا سياسيًّا دائمًا، وأمنيًّا وديمچغرافيًّا. وقد تأسّست كثير من هذه العلاقات على الدعم العسكريّ والتبادلات التقنيّة الحديثة، التي تحفّز على تعزيز ثيولوجيا الأمن الإسرائيليّ والمراقَبة الضبطيّة، واعتقال وإيذاء الأطفال الفلسطينيّين، واستهدافهم على أنّهم "رأسمال سياسيّ _ اجتماعيّ" وسلاح فتّاك في يد المستعمِر ليحفّز من خلالهم مشروعه الاقتلاعيّ الإحلاليّ؛ ليصبح الطفل "تهديدًا" يُستَغلّ من أجل تمرير السياسات الاستعماريّة. ووَفقًا لهذه العلاقات والممارسات، تشكّلت بنى أيديولوجيّة صهيونيّة تستخدم ادّعاءات دينيّة، تصوغ الدين على أسس توراتيّة لتعطي المستوطن وأطفاله "حقوقًا توراتيّة مقدّسة"، ترمي إلى محو الفلسطينيّ كإنسان أصلانيّ له حقوق تاريخيّة وكيان اجتماعيّ ثابت، لتُنشِئَهُ "خطر دائم"، "إرهابيّ بالفطرة"، وكغطاء للعلاقات السياديّة، وبِذا تخلق تبريرًا للعلاقات التي يكون فيها اليهوديّ سيّدًا من حقّه بتر جذور الإنسان الفلسطينيّ، بما في ذلك نزع طفولة أطفاله. فالمنظومة الاستيطانيّة في الصهيونيّة، بخلاف سياقات استيطانيّة أخرى؛ لم تستخدم منطق "إنقاذ" أو "حماية" الطفل والطفولة، بل نزع طفولتهم بغية تصويرهم كإرهابيّين، مجرمين بالفطرة، وكتهديد أمنيّ دائم لسياديّة الدولة، وبالتالي فالدولة بحاجة "ماسّة" إلى قمعهم وسَجنهم واقتلاعهم وشرذمتهم؛ وذاك ما يؤدّي إلى انتهاك حقوقهم كأطفال. في المقابل، يقاوم الطفل/ة الفلسطينيّ/ة بكلّ قواه/ا وأساليبه/ا الخاصّة وصموده/ا، مزعزِعًا /مزعزِعةً منظومة اللا_طَفْلَنة التي تتبناها الدولة الصهيونيّة (Shalhoub-Kevorkian, 2015, 2020).

عند تحليل نزع الطفولة، سوف أتطرّق، أوّلًا، إلى أهمّيّة توطين المعرفة من خلال تحليل منهجيّات السيطرة ونزع الطفولة، منطلِقةً من كلمات وتجارب وكتابات الأطفال أنفسهم في محاولاتهم الدائمة والمستمرّة للتأكيد على طفولتهم ورفض وزعزعة منطق النزع وسيرورته وأيديولوجيّاته. ثانيًا، سوف أناقش نزع الطفولة والصدمة، معتمِدةً في هذا على تحدّي المنظومات الفردانيّة الشائعة في تحليل الصدمة لربطها بالتاريخ والجغرافيا والسياسة العالميّة المنكِرة

لحقّ الفلسطينيّ بأرضه، أو المتغاضية عن هذا الحقّ. في الجزء الأخير، قبل الخلاصة، سأعرض أربعة مَحاور لفهم اللا_طَفْلَنة ("نزع الطفولة"). في النهاية، سألخّص المفهوم الذي اقترحه "نزع الطفولة"، مؤكّدة أنّ هناك عمليّات مُمَنْهَجة وبنيويّة تنتجها القوّةُ الاستعماريّة، وتعيد إنتاجها، مستخدِمة الأطفال والطفولة كرأس مال سياسيّ للدولة لتعميق وتحفيز الاقتلاع، واحتجاز الطفولة الفلسطينيّة في حيّز الإلغاء والمحو.

توطين المعرفة

أ. نزع الطفولة، المُحصى والعَصيّ على الإحصاء

ثمّة نطاقات لا تُعَدّ ولا تُحصى لنزع الطفولة، تشمل "الجروح الداخليّة" (Giacaman, 2018; Marshal, 2014) غير المُحصاة رقْميًّا. تُبيِّن شهادات الأطفال الفلسطينيّين المحكيّة وغير المكتوبة أنّ مساحات الطفولة المخترَقة غير محصاة. وهي تشمل اختراقَ حميميّة العائلة والبيوت، والمستشفيات، والمدارس، والأحياء؛ وكذلك تتضمّن عَصْبَ الأعين عند أخذ الأطفال للتحقيق، وتكبيلَ الأيادي من خلال التثبيت القسريّ بالأرض، والإيذاءَ الناجم عن معاناة الأطفال الناجين من هدم المنازل، والقصف، ومعايشة تجربة اقتحام المنازل نهارًا أو في منتصف الليل للتفتيش أو من أجل اعتقال أب أو أحد أفراد العائلة. هناك "جروح داخليّة" غير مرئيّة وغير مُفْصَح عنها وغير مُحْصاة (Giacaman et al., 2007; Haj-Yahia, 2008; Haj-Yahia et al., 2021; Qouta et al., 2012). تلك النطاقات غير المستكشَفة التي تعاني من سياسات الإخراس، والتي تسجّل عنفًا لا نهائيًّا، يُمْكن تتبُّع بعضها في دراسات تبحث الحياة في ظروف أشبه بالحرب، ودراسات في علم النفس والصدمات النفسيّة (Rabaia et al., 2014).

فلو راجعنا المعلومات الرقْميّة في السنوات الخمس أو العشر الأخيرة فقط، التي بحوزتنا، لَتَكَشَّفَ من إحصائيّات العنف المُحصى أنّ آلاف الأطفال الفلسطينيّين اعتُقِلوا في الفترة الواقعة بين العام 2014 والعام 2018. في فترة العامين 2014 وَ 2015 فقط، قدّم المدّعون العسكريّون الإسرائيليّون 1,046 لائحة اتّهام ضدّ قاصرين فلسطينيّين في الأراضي المحتلّة عام 1967 (Alyan & Slutzker-Amran, 2017; Laor & Jaraisy, 2016). في عام 2019 وحده، اعتقلت قوّات الاحتلال الإسرائيليّ 880 طفلًا فلسطينيًّا (الجزيرة، 2020)، بمن فيهم أطفال دون سنّ الثانية عشرة. في كلّ عام، يُحاكَم في المعدّل نحو 700 طفل فلسطينيّ من الضفّة الغربيّة، من قِبل المحاكم العسكريّة الإسرائيليّة، وذلك بعد اعتقالهم واستجوابهم واحتجازهم من قِبَل الجيش الإسرائيليّ. منذ العام 2000، احتُجِز نحو 6,500 طفل فلسطينيّ (Defense for Children Palestine, 2020a) من بينهم 464 طفلة فلسطينيّة بين العام 2008 وحزيران عام 2020 (B'Tselem, 2020a).

أدّى العنف والعسكرة الموجّهان ضدّ الأطفال الفلسطينيّين إلى إصابات جسديّة ونفسيّة خطيرة، بما في ذلك التسبُّب في الموت. في الفترة الواقعة بين العامَيْن 2009 وَ 2020، قُتل 799 قاصرًا فلسطينيًّا على أيدي قوّات الأمن الإسرائيليّة في قِطاع غزّة والضفّة الغربيّة (B'Tselem, 2016a). في صيف عام 2014 فقط، قتلت قوّات الأمن الإسرائيليّة 2,202 من الفلسطينيّين والفلسطينيّات، من بينهم 526 طفلًا ضمن العمليّة المسمّاة "الجرف الصامد" ضدّ قِطاع غزّة (Ibid). علاوة على ذلك، قُتل 2,115 طفلًا نتيجة التواجد الاستيطانيّ والعسكريّ الإسرائيليّ في الأراضي الفلسطينيّة المحتلّة، منذ بداية الانتفاضة الثانية في تشرين الأوّل (أكتوبر) عام 2000 (Defense for Children Palestine, 2020b). منذ العام 2008، قُتل العديد من الأطفال الفلسطينيّين على أيدي القوّات الإسرائيليّة باستخدام الذخيرة الحيّة، أو ما يسمّى أسلحة السيطرة على الحشود،[2] ووقعت غالبيّة وفَيَات الأطفال في سياق الاحتجاجات على طول السياج الحدوديّ لقِطاع غزّة (Defense for Children International-Palestine & CUNY School of Law, 2019). بالإضافة إلى ذلك، أصيب العديد من الأطفال الفلسطينيّين بالذخيرة الحيّة التي بحوزة القوّات الإسرائيليّة (43 طفلًا عام 2012؛ 546 طفلًا عام 2014؛ 73 طفلًا لغاية شهر أيّار عام 2021 (Ibid)). وأصيب أكثر من ستّة آلاف طفل في احتجاجات قِطاع غزّة بالذخيرة الحيّة، والرصاص المطّاطيّ، والغاز المسيِّل للدموع، وما إلى ذلك (United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs, 2019)، كان من بينها 2,980 حالة تطلّبت الاستشفاء (Save the Children, 2019).

أمّا في ما يخصّ هدم المنازل والمباني، ففي عام 2020 فقط هُدِم 854 مبنى، ممّا أدّى إلى تهجير ما يقارب ألف فلسطينيّ، بينهم أكثر من 500 طفل (B'Tselem, 2020b; Save the Children, 2021). في القدس الشرقيّة المحتلّة، في فترة الأعوام 2004 - 2020، هُدِم 1,063 منزلًا، ممّا ترك 1,847 قاصرًا دون مأوى (B'Tselem, 2020c). إنّ حرمان الأطفال من مأوًى منزليّ آمن، وَ/أو من منالِيّة التعليم، وذاك يشمل هدم المدارس أيضًا، هو صيغة أخرى من عنف الدولة تخدم بقوّةٍ منظومةَ اللا_طَفْلَنة، وتؤدّي إلى انتشار العديد من الأطفال في الشوارع للتسوُّل ولبيع المستحضَرات والماء والمشروبات الخفيفة، أو لطلب الصدقة.

لقد رفضت إسرائيل مرارًا وتكرارًا منْح الفلسطينيّين تصاريح بناء للمدارس في الضفّة الغربيّة، وهدمت تلك التي بُنِيَت "دون تراخيص" (حسب التحديد الإسرائيليّ)، وهو ما يصعّب على آلاف الأطفال الفلسطينيّين الحصولَ على التعليم، بل قد يجعل ذلك ضربًا

2. للاطّلاع على آخر الإحصائيّات، بالإمكان مراجعة توثيق "الحركة العالميّة للدفاع عن الأطفال –فلسطين" من خلال الرابط المرفق. https://www.dci-palestine.org/fatalities_injuries

من المستحيل في بعض المناطق. وفي فترة الأعوام 2011 - 2018، أقدَمَ الجيش الإسرائيليّ على هدم أو مصادرة أو إغلاق مباني المدارس الفلسطينيّة أو ممتلكاتها، في الضفّة الغربيّة، ما لا يقلّ عن ستّ عشرة مرّة (Human Rights Watch, 2018). وفي آب عام 2020، أطلق الطيَران الحربيّ الإسرائيليّ صاروخًا على مدرسة غزّيّة في وقت متأخّر من الليل، فتسبّب الأمر في إغلاقها (المركز الفلسطينيّ لحقوق الإنسان، 2020). في عام 2014، تضاعفت الحوادث التي أُقحم فيها طلّاب مدارس باعتداءات الاحتلال، ممّا أثّر على نحو 25 ألف طفل فلسطينيّ. وفي عام 2015، نُفِّذ 123 اعتداءً على مدارس، وكانت هناك 143 حادثة حرمان من التعليم[3] (United Nations Country Team – Occupied Palestinian Territory, 2016).

يدعو هذا المقال القارئ إلى تحليل المرئيّ وغير المرئيّ، ما يُحصى وما لا يُحصى، من أجل فهم المعاني والأضرار والتأثيرات المنخرطة في عمليّة نزع وحبس الطفولة، ومن أجل التعمُّق في فهم الطفولة المحتجَزة وكيفيّة استخدامها كرأس مال اجتماعيّ _ سياسيّ في حيّز استعماريّ استيطانيّ معسكَر. ويخترق رأس المال هذا الحيّز الجيو_سياسيّ للأرض والبناء والمسكن، منتقلًا بسيولة ولولبيّة بين الأرض والعائلة والمجتمع والجسد والوجدان. ويحدث نزع الطفولة من خلال التنقُّل الديناميكيّ بين أذهان (نفسيّات وخوالج) الأطفال وأجسادهم وحيواتهم التي تتأثّر شديدًا بمنظومات العنف والاقتلاع التي تقوم بإنتاج وإعادة إنتاج آليّات يوميّة للعنصريّة العنيفة للدولة الاستيطانيّة، وهو ما أعرّفه بنزع الطفولة أو بِـ "اللا_طَفْلَنة". إنّ طرح مصطلح "نزع الطفولة" يأتي ليشير ويؤكّد أنّ الأطفال الفلسطينيّين يُستخدَمون كرأس مال سياسيّ _ اجتماعيّ (محلّيّ وعالميّ) في أيدي الدولة التي تصوّر الطفل الفلسطينيّ بأنّه لا_طفل، إرهابيّ ومجرم بالفطرة، لاقتلاع مستقبله ومحو حقوقه. استخدام الأطفال كرأس مال سياسيّ يعمل مليًّا لإبقاء الأطفال في حالة من الإضعاف والاستلاب الدائمَيْن في جوهرَيْهِما، المتغيّرَيْن في طُرُق التطبيق، والمتواصلَيْن تحت هيمنة أنظمة أمنيّة معسكَرة وثيولوجيّة.[4] تعمل هذه الأنظمة التي تحكم الطفولة من خلال مجموعة من الأنظمة والإجراءات القانونيّة: حيث يُعتبر -على سبيل المثال لا الحصر- بعض الأطفال الذين يعيشون في قِطاع غزّة، والضفّة الغربيّة، وداخل حدود مناطق الـ 48، أو القدس الشرقيّة المحتلّة، مقيمين (أي ليسوا مواطنين)؛ ويفتقر بعضهم إلى وضعيّة الإقامة، بينما تَستهدف وتَجرح وتَقتل هذه الأنظمةُ الأطفالَ الرافضين للمنظومة الاستعماريّة والمشاركين

3. أو ما يسمّى بالتسرّب من المدارس -وهو مصطلح أرفض استخدامه لأنّه في واقع الأمر الأطفال لم يهربوا ولا تسرّبوا، بل حُرِموا التعليم.

4. للتوسّع في هذا الموضوع، انظر مجادلتي حول ثيولوجيّتَيْن: إحداهما توراتيّة، والأخرى ذات توجُّه أمنيّ صهيونيّ.(Shalhoub-Kevorkian, 2015)

في مسيرة العودة في غزّة. يفتح موضوع لا_طَفْلنة الأطفال الفلسطينيّين، وعنف الدولة ضدّ ظروفهم، وبيئتهم الاجتماعيّة _ السياسيّة، إمكانيّاتٍ تحليليّةً تُعمِّقُ رؤيتنا للطفولة في السياق الاستيطانيّ الكولونياليّ الصهيونيّ، وتبرز مساحات فكريّة وسياسيّة متحدّية، تصرّ على إبداء مظاهر معمّقة للطفولة الفلسطينيّة ولقدرتها على رفض اللا_طَفْلَنة وقول الحقيقة للسلطة.

ب. أصوات الأطفال: الوعيُ للعنفِ المؤسّس، والواقعِ، والتاريخِ الاستيطانيّ

> أنا... فلسطينيّة... شوفي... مفتاحي معي... أنا مش إرهابيّة، أنا مجروحة [...]؛ ومفتاح تاتا [جدّتي]، وتطريزها، وقصصها، وحبّها هي دواي. إنتِي عارفة... تاتا مخبّية المفتاح داخل صدرها، قريب من قلبها، عشان يحميها ويحمي فستانها المطرّز... اللي كلّ غرزة فيو بتحكي لك قصّة... يمكن حتّى قصص. (لَمى، ابنة اثني عشر عامًا، القدس، 2017).

أقتبسُ هذه الكلمات كي نستطيع أن نقرأ ونفهم الواقع والتاريخ من خلال أصوات الأطفال وجروحهم بارتباطها مع تشكُّلات واقع استيطانيّ كولونياليّ في فلسطين التاريخيّة. لَمى (وهي طفلة فلسطينيّة من القدس) قالت لي كلماتها التي أوردتها أعلاه حينما كنت أسير مع أمّها من مخارج باب العمود، ومن خلاله، إلى أزقّة القدس القديمة حيث نسكن جميعًا. أقتبسُ كلماتها لأنّها قيلت في لحظة تأمُّل، عندما أوقفتنا دوريّة عسكريّة في باب العمود كانت تلاحق فتاة صغيرة السنّ لم نتمكّن من معرفة ملابَسات ملاحَقتها، إلّا أنّنا شهدنا لحظة "صيدها" حين دفعها الجنود إلى سيّارة الشرطة، وبدأوا في تفتيشها. يعكس صوت لَمى وعي الأطفال للعنف المؤسّس للدولة الكولونياليّة، والمنعكس في التأكيد وذكر "المفتاح"، كدليل على الاستلاب التاريخيّ، وإثبات للحقّ والحاجة إلى الرجوع ونقد تاريخ وثوابت الاستلاب الكولونياليّ الصهيونيّ وأصوله. وتستمرّ لَمى في جملتها في ربط التاريخ بالحاضر، بما فيه الحياة اليوميّة المليئة بتحدّيات وكفاحات ومعاناة، لتصوغَ لنا قاموسًا ومصطلحاتٍ فكريّةً لننظر بعيونها وعيون أطفال مثلها، ولنصغيَ إلى كلماتهم وأصواتهم (Shalhoub-Kevorkian, 2020). وتوطّن كلمات الأطفال الذين قابلتهم وحاورتهم، من غزّة إلى القدس، ومن الخليل إلى النقب هذا التحليل، والذي أقرأه متقاطعًا مع إحصائيّات ودراسات حول سلب الطفولة في أُطُر استيطانيّة استعماريّة أخرى، يهدف إلى تشكيل "وعي وكتابة نقديَّيْن من خلال الإصغاء لأصوات الناس وآلامهم والتعبير عن ذواتهم" (Lykes & Sibley, 2014). ولذلك أنطلق في كتابي من تجارب وسرديّات الأطفال في النقب والخليل

وغزّة والقدس،[5] ومن خلال إصغائي لأصواتهم وكلماتهم ومخيّلاتهم؛ وذلك في سبيل الإسهام في تشكيل وعي نقديّ تجاه واقع الطفل الفلسطينيّ، يتحدّى العنفَ الكولونياليّ المنحوت على جغرافيا الأطفال ومجتمعهم وبيتهم وجسدهم.

تشكّل لنا أصوات الأطفال في فلسطين التاريخيّة أساسًا معرفيًّا ونفسيًّا لبناء نظريّة "اللا_طَفْلَنة" المختلفة عن كولونياليّات استيطانيّة في كندا وأمريكا وأستراليا وغيرها، والتي تتعاطى مع الطفل الأصلانيّ. إنّ استخدام الدولة الكولونياليّة في فلسطين للطفل الفلسطينيّ، مقارنةً بأطفال أصلانيّين آخرين، تتشابه في بعض القضايا الجوهريّة، ولا سيّما استهدافها للأطفال كرأس مال اجتماعيّ_سياسيّ لطمس الهُويّة الأصلانيّة، ولكنّها تستمرّ في مبدأ الاقتلاع لمحو مستقبل الفلسطينيّ في أرضه لتدعيم أيديولوجيّات صهيونيّة _ توراتيّة استلابيّة، لمحاولة ضمان عمليّة استمرار المحو. لقد أظهرت دراسات الأطفال النقديّة، ولا سيّما في الأطر الاستيطانيّة الاستعماريّة، التي تمحورت في مقولة "أَقتُل الهنديَّ داخل الطفل، وأُنقِذ الطفل" (Churchill, 2004) مع اختلافها الجوهريّ عن الحالة الفلسطينيّة، أنّنا بحاجة إلى البحث وإلى إنتاج معرفة موطَّنة فلسطينيًّا. فإن كان العمل السياسيّ للدولة الاستيطانيّة في حالات أخرى يجري من خلال قتلِ الهويّة الأصلانيّة، والنظرِ إلى الأصلانيّ بمنظور ثقافويّ، وَ "إنقاذِ الطفل" من أصوله، وتربيتِهِ وَفْقًا لمعايير أوروبيّة على أنّها تمثّل "الحضارة" وَ "التقدُّم" على العكس من شعبه الأصلانيّ "المتخلّف"، فإنّ الحالة الفلسطينيّة ليست كذلك.

ففي سياقات الاستعمار الاستيطانيّ في أمريكا الشماليّة وأستراليا، واجه الأطفال الأصلانيّون الأمريكيّون في المدارس الداخليّة سوء المعاملة وَ "التأديب". وأُدخِلت في المدارس عقوبات للأطفال إثر تحدُّثهم بلغتهم الأصليّة، واستُعمِلت عقوبات أخرى، نحو: التعقيم القسريّ؛ الاعتداء الجنسيّ؛ الاعتداء الجسديّ. السياسات الكولونياليّة تجاه الأطفال الأصلانيّين في كلّ من الولايات المتّحدة وكندا اهتمّت بنزع الثقافة والهُويّة من الأطفال الأصلانيّين، وبتحويلهم إلى أدوات خاصّة أو -كما أشرت سابقًا- إلى رأس مال سياسيّ يُستخدَم لتدعيم مشروع التوسُّع الأمريكيّ، وبالمحو الممنهَج للمجتمع الأصلانيّ في الأمريكيّتين. وفي أستراليا، كان إبعاد أطفال السكّان الأصليّين عن أُسَرهم سياسةً حكوميّة رسميّة حتّى عام 1969، من أجل "النهوض بهم" وَ "تحضيرهم" (أي جعل أطفال السكّان الأصليّين حضاريّين) (Jacobs, 2009). وأُبعِد الأطفال قسرًا عن عائلاتهم ومجتمعهم نتيجة لسياسات الحكومة الأستراليّة، وأحيانًا بالتعاون مع بعثات كنسيّة، وسُمّوا أجيال الأطفال الذين انتُزِعوا من عائلاتها "الجيل المسروق".

5. يَحْدوني أمل في أن أتابع البحث في مناطق أخرى.

من الأساليب والآليّات التي تشكّلت في السياقات الكولونياليّة الاستيطانيّة في كندا وأمريكا، ضمن سيرورة "إنقاذ" الطفل الأصلانيّ، كان كذلك "الإدماج"، والمقصود إنقاذ الطفل من بيئته الأصلانيّة، وعائلته "غير الناضجة" وَ "غير المؤهَّلة" لتربية الأطفال، وكذلك من ديانته وثقافته "غير المتحضّرتَيْن"، وإدماجه قسرًا في الحداثة والدين المسيحيّ وَفقًا للمعايير "المتحضّرة" الأوروبيّة. هذا المخطَّط الأيديولوجيّ يبغي محو هُويّة الطفل القوميّة والثقافيّة والدينيّة والاجتماعيّة، ويعمل على شحن محرّكات السيادة في محاولة لإبادة "الأصلانيّ" من داخله، وفي المقابل تربيته على استدخال هُويّة المستعمِر، وبناء الكولونياليّة الأوروبيّة كجزء من هُويّته، ليصبح الأطفال جزءًا من سيرورة الاقتصاد النكرو_سياسيّ للدولة الاستيطانيّة الكولونياليّة (Mbembe, 2003). وتعتمد بعض الأساليب الأخرى على الآليّات التي تولّدت في سياق عالميّ نيوليبراليّ؛ وهو التراكم الرأسماليّ من خلال السلب عبْر التكنولوجيّات والتقنيّات العسكريّة والأمنيّة التي تراقب وتلاحق المستعمَر منذ نعومة أظفاره، قالبةً حياتَهُ ومساحاتِهِ إلى سجن كبير وحيّز استبداد غير متناهٍ. في هذا الصدد، وعندما نتحدّث عن الطفل الفلسطينيّ، السياقات الجغرافيّة _ السياسيّة والأطر الزمنيّة مغايرة عمّا كان في كندا وأمريكا وأستراليا. فعند الكشف عن طبقات العُنف العِرْقيّ /الإثنيّ ضدّ الفلسطينيّ عمومًا، والطفل الفلسطينيّ على وجه الخصوص، تتجلّى مزايا تتماشى مع الوقت والسياق، ومع خصوصيّة الحالة الفلسطينيّة. على سبيل المثال، التنميط الجاري في السنوات الأخيرة حيال الطفل الفلسطينيّ، على أنّه "إرهابيّ"، هو جُزء من السياق والخطاب العالميّ النيوليبراليّ، الموجَّه ضدّ "الإرهابيّين". هذا التنميط في السياق الصهيونيّ وجرائم دولته عُمِّمَ عالميًّا من خلال وسائل الإعلام المسانِدة لإسرائيل، مستهدِفًا الأطفال. المحو من خلال نزع الطفولة وإنشاء الطفل كمجرم، إرهابيّ، خطر ديمجرافيّ (وذلك لإبقاء أكثريّة يهوديّة ديمجرافيّة)، "آخَر"، هو جُزء من نسق التراكم الاستيطانيّ الاستعماريّ، والاقتصاد السياسيّ النيوليبراليّ، الذي ينزع الطفولة عن الفلسطينيّ، ليحدّده في إطار "الإرهابيّ الغازي" والذي يمكن تفعيل العنف ضدّه، وإيذاؤه، ومن ثَمّ الخروج من الجرائم ضدّه دون محاسَبة قانونيّة أو عقاب. ما أدّعيه أنّ ما يجري في فلسطين لم يتعدَّ فقط ما حدث في سياقات استيطانيّة استعماريّة أخرى من نزع الطفولة لإنشاء فوقيّة المحتلّ، واستخدامها لمصلحة المستعمِر، بل لقد تخطّاه أوّلًا ليجرّم الطفلَ الفلسطينيّ ويعرّفه سياسيًّا _ قانونيًّا بأنّه "إرهابيّ" وَ "خطر أمنيّ" وَ "مجرم بالفطرة"، وثانيًا ليؤطّره كآخَر لا مكانة له في الحيّز الإنسانيّ، ولا قيمة له كطفل _ إنسان، في مقابل "قداسةِ" اليهوديّ المستعمِر المعتمِدةِ على تأويلات دينيّة توراتيّة.

والسؤال المركزيّ هنا: ما هي الديناميكيّات التي تستهدف بها المنظومةُ الكولونياليّة الطفلَ الفلسطينيّ؟ وكيف تمارِس الدولة اليهوديّة أشكالًا متعدّدة من القمع ضدّ الطفل الفلسطينيّ؟ وما هي منهجيّات وآليّات المحو اليوميّة والثقافيّة والحقوقيّة والمادّيّة

والاجتماعيّة الواقعة عليه؟ وكيف انعكست هذه المنظومة الكولونياليّة على حياة الأطفال ووعيهم للواقع ورؤيتهم لطفولتهم؟

وفي هذا السياق، أؤكّد أنّ كلمات وكتابات الأطفال تعكس وتعي هذا الواقع، وتشعر به، لكونها ترى الجنود والبندقيّة والموت، وتشير إلى اختراقات الحواسّ، ونحت الجروح على أجسادهم. وأقتبسُ من لَمى قولَها:

> عمرك بحياتك شفتي إنسان يستمتع بكراهيّة الناس وقتلهم... يعني بستمتع ببناء المزيد والمزيد من صناديق القتل؟ وإلّا كيف ممكن تسمّي هاي الصناديق الجديدة اللي بنوها بباب العمود... ما هي متل اللي بناها المستوطنين في الشيخ جرّاح... تمامًا متل اللي بطيّروها فوق غزّة... اللي بحمّلوها كاميرات وأسلحة... اللي بِسوقوها عشان يجرفوا بيوتنا... ويطخّونا فيها... كلّها صناديق للقتل.

لَمى نظرت إلى الواقع من حولها في القدس القديمة، ووجدتْه مليئًا بمجالات ومساحات مُعَدّة لقتل الفلسطينيّين، وصاغت التعبير "صناديق القتل" الذي يعبّر عن مجالات وَ "أبراج مراقبة" شكّلتها الأجهزة الأمنيّة الإسرائيليّة بجنودها وكاميرات المراقبة وبقنّاصتها مستهدِفةً الفلسطينيّ بأساليب ومنهجيّات مختلفة.

ج. نزعُ الطفولةِ، والبيتِ /الأرض /الوطن، والنكبةُ المستمرّة

> ...سرقوا حقّنا في المشي بأمان... بَس ما بقدروا يسرقوا حقوقنا... نحن نحتفظ بحقوقنا في قلوبنا وعقولنا. منتذكّر مجزرة الدوايمة، خبّرني عمّي بكلّ شيء عن المجزرة... وبتذكّر مجزرة الخليل، لَمّا قتل چولدشتاين فلسطينيّين كانوا يصلّوا في مسجدنا هنا... يمكن سرقوا حقّي في المشي في الشارع، بَس أنا عندي كثير قوّة وبتذكّر قصصنا وبعرف حالتنا... هان [مشيرة إلى قلبها ورأسها]، وعندي قدرة على تدمير زنزانتي بقلبي وعقلي وايماني (أمل، الخليل، 2017).

يصف فرانز فانون البلدانَ المستعمَرةَ، في سياق آخر، على النحو التالي:

> البلدة التي ينتمي إليها المستعمَرون، أو ما نسمّيه بلدة أصلانيّة، القرية الزنجيّة، المحميّة، هي مكان يحمل صيتًا سيّئًا، يسكنها رجال ذوو سمعة شرّيرة [...] تلك الجماهير الهستيريّة، تلك الوجوه المحرومة من الجمع الإنسانيّ، تلك الأجسام المنتفخة التي لا تشبه أيّ شيء على الأرض، تلك الغوغاء بدون بداية أو نهاية، هؤلاء الأطفال الذين ينتمون إلى لا أحد، والكسل الممتدّ في الشمس، وإيقاع الحياة الحضريّ، كلّ هذا يشكّل جزءًا من المفردات الاستعماريّة (Fanon, 1963, pp. 39-43).

كلمات أمل (من الخليل) تُعيننا على صياغة نظريّة أعمق للنُّظُم الكولونياليّة المتداخلة والمتشابكة التي تؤدّي إلى تأطير الأطفال كجزء من الاقتصاد السياسيّ للمستعمِر الصهيونيّ، والتعاطي معهم كرأسمال سياسيّ تحت هيمنة أجهزة القمع والقوّة والسيطرة. والمشهد الكولونياليّ الذي يصفه لنا فرانز فانون يبيّن كيف تتعاطى هذه الأجهزة مع الأطفال، من خلال انتزاعهم معرفيًّا ومادّيًّا من المحيط والهُويّة وجعلهم منتمين إلى لا أحد (يُمحى الأصلانيّ من التاريخ والحاضر).

روان، البالغة من العمر 12 عامًا، وهي من البلدة القديمة في القدس، حدّثتني عن كوابيسها وقلقها قائلة:

> كيف أنام بدون كوابيس، لمّا أنا عارف إنّو المستوطنين بيعيشوا بجنبنا؟! هم بتمدّدوا فوق سطحنا في الليل، ويهاجمونا طول الوقت، حتّى لما بمشي للمدرسة... ما بقدر حتّى أستريح في سريري... بلاحظ إمّي وأبوي بركضوا طول الوقت ليسدّوا شبابيكنا وِابوابنا، وبمنعونا من اللعب، حتّى هان، داخل المنزل.

البيت والمساحة الحميميّة العائليّة هما من أهمّ مساحات نموّ وتطوّر الأطفال. بَيْدَ أنّ صوت روان، كأصوات أطفال كبروا الآن ولكنّهم عايشوا النكبة، أكّدوا على جرائم الدولة ضدّ الحيّز الحميميّ المنزليّ. أصوات الأطفال الذين عايشوا النكبة أشاروا إلى الاقتحامات المتعدّدة للمنازل، حيث أشارت سلوى البالغة من العمر تسعين عامًا، والتي هُجّرت من حيفا طفلةً عام 48:

> كانوا يهجموا على البيت واحنا نايمين، وحطّوا البارودة ببطن أخوي وإمّي فقدت عقلها من الخوف. عشان هيك هربنا من الذعر [...] لمّا رجعنا كانوا هادّين البيت باللي فيه... ضليّنا مشتّتين سنين... وإمّي صارت إمّ ثاني، مصرصعة على الآخِر.

نكبة فقدان البيت والوطن أبقت والدة سلوى في ذعر مستمرّ، على نحو ما قالت:

> كبرنا بخوف، ما عشنا يوم بلا صرصعة... ما هوّي بيتنا راح، قرايبنا [أقرباؤنا] راحوا، وصرنا تحت رحمتهم لسنين... وبعدنا... فكرك بيتي اليوم بأمان؟! ما أنا كمان مصرصعة على اولادي... تمامًا زَيّ إمّي الله يرحمها.

هذهِ الصدمات والمخاوف والقلق واختراقات المساحات الحميميّة الخاصّة في داخل البيت الفلسطينيّ -كما انعكست في صوت روان في الحاضر الفلسطينيّ في القدس، وسلوى في فترة النكبة في 1948، تتطلّب منّا منظورًا نقديًّا لفهم المعاناة النفسيّة لدى الأطفال الفلسطينيّين. تشير روز ماري صايغ إلى الفشل التحليليّ الذي واكب الأطر التحليليّة الممركزة أوروبيًّا والمهيمنة في علم النفس، التي أقصت المجتمعات المستعمَرة وتجاربها،

ولا سيّما الأطفال، من خلال الربط الدائم والأيديولوجيّ (الوضع الكولونياليّ في هذه الحالة) والنيوليبراليّ (المشدِّد على الفردانيّة، والمُلْغي لتجربة الاقتلاع الجمعيّة) (Sayigh, 2015). بالتالي، على المنظور التحليليّ الذي أسهَمَ في تطويره علماءُ علم النفس التحرُّريّ، كمارتن بارو في أمريكا اللاتينيّة، وفانون في أفريقيا (Fanon, 1952/1986; Martín-Baró, 1989, 1994)، أن يستعين بأصوات الأطفال ليشكّل تمهيدًا نظريًّا لفهم التجارب والظروف والشروط في السياق الكولونياليّ التي تعمل على نزع الطفولة عنهم، وتحتجزهم في مساحات معتقلة ومقتلعة كلّيًّا من الحيّز الإنسانيّ. يقول سمير أخو روان، البالغ من العمر 15 عامًا:

> نحن هان دايمًا معتقلين... إذا اتطلّعنا حولنا، منعرف إنّو معظم الأولاد في عمري وأصغر، إمّا في السجن المنزلي، أو اعتقلته دولة اسرائيل وحقّقت معه واعتدوا عليه بعنف. نحن منعيش تحت احتلال عسكريّ، شو نتوقّع؟ حياة سهلة؟ هان يتوقّف لقاء الأصدقاء والاستمتاع بالحياة... زَيّ ما قالت أختي روان، حتّى النوم في السرير... الراحة يعني... مش الأمر السهل... ومع هادا... بقابل اصحابي، بطلع معهم، ألعب، ونعم، أحيانًا بوقّفوني... وقبضوا عليّ... هذا احتلال عسكريّ، وهذه هي الحياة تحت الاحتلال.

تقترح سرديّات الأطفال في حاضرنا الفلسطينيّ، وفي فترة النكبة -من خلال مفردة "صرصعة"، وهي باللهجة الفلسطينيّة تعني الفزع والخوف الدائم- مصطلحات ونظريّة خاصّة لفهم التجربة [النفسيّة _ السياسيّة] المتداخلة والمتشابكة والنابعة من وحي معاناة الطفل وَ "صرصعته" وصرصعة ذويه، وتشكُّلات ردود أفعالهم عند اختراق الحيّز الحميميّ للبيت، للأرض، والجسد. في المقابل، تقدّم التحليلات "غير المسيّسة" لمخاوفهم وكوابيسهم وقلقهم مثالًا لتحليلاتٍ تُحوِّلهم إلى مرضى، تحليلات ناتجة عن إنتاج معرفيّ مشبع أيديولوجيًّا ومُعَرْقن كما أشار فانون ومارتن بارو (Fanon, 1952/1986; Martín-Baró, 1989, 1994). هذا الإنتاج المعرفيّ المنزوع السياق، والمرتكز على الفردانيّة النيوليبراليّة، لا يُعنى إلّا بالظروف الطبّيّة _ النفسيّة، ويُخفِق في إدراك التجربة في سياقاتها وظروفها وشروطها. وبالتالي تقوم التحليلات المنطلقة من هذا المنظور على تهميش أهمّيّة الولوج الفكريّ _ الأخلاقيّ المسؤول في تجارب الأطفال اليوميّة، أو الإصغاء لمشاهداتهم، وفهم معاناتهم من عنف الدولة والمستوطنين.

إنّ توجُّهي لفهم اللا_طَفْلَنة يرفض بشدّة هذه التحليلات الفردانيّة غير المسيَّسة، والمنزوعة السياق، وهو رفض لإسكات أصوات الأطفال، إذ قد يتسبّب إنكار هذه الصدمات، وعدم تسمية "صرصعة" الطفل في بيته كإرهاب دولة، في جروح إضافيّة (Marshal, 2014). ما أقوله هو أنّ الجروح النفسيّة /الاجتماعيّة، والصدمة النفسيّة -"التراوما" الكولونياليّة- التي يعيشها الطفل الفلسطينيّ، وخاصّة عند اختراق حيّزه الحميميّ (أَلَا وهو بيته الحامل

للحظات وذكريات)، لا يمكن إغفاله، ولا يمكن إلّا أن نسمّيه جرائم دولة. فأصوات الأطفال، عند ذكرهم لمفاتيح بيوتهم المسروقة، المخترَقة، المهدَّمة، والصدمات الطفوليّة التي لا يمكن نسيانها، مثل اعتقال أبناء وبنات أُسَرهم وهم نائمون في الأَسِرّة داخل بيوتهم، أو تكسير محتويات البيت "ليمحو ذكرياتنا"- على حدّ تعبير واحدة من بين هؤلاء الأطفال-، أو التسلّق على أسطح المنازل بغية "صرصعة" أهل البيت، تَعِي وتصوّر وتكتب كلمات الأطفال وأصواتهم، وتؤسّس مفاهيم موطّنة بالسياق الفلسطينيّ، مؤكِّدة الحاجة إلى فهم التجربة والمعاناة الجماعيّة _ السياسيّة.

لقد قدّم مارتن بارو، الباحث في علم النفس التحرّريّ، نظريّة نفسيّة اجتماعيّة لمقاربة الصدمة النفسيّة على أنّها تكمن في العلاقات بين الفرد والمجتمع، وتَنتج اجتماعيًّا في سياق تاريخيّ كولونياليّ. وبالتالي فإنّه يرى أنّ الصحّة النفسيّة تتبلور من خلال تجربة الفرد داخل المجتمع، وذلك بخلاف الأسس المعرفيّة النفسيّة المنطلقة من الفرد على نحوٍ منعزل عن العلاقات التي تشكّل وتصوغ تجربة الأفراد (Lykes & Sibley, 2014).

فالصحّة النفسيّة لا تقتصر على العوامل المتعلّقة بالمجال البيولوجيّ الفردانيّ، بل إنّها تمتدّ إلى مجالات سياسيّة واجتماعيّة تاريخيّة وفي الزمن الحاضر، كما أنّها تخترق الجسد الفرديّ والوطنيّ. وكما أشارت الباحثة الفلسطينيّة ريتا جقمان، ثمّة حاجة إلى "تضمين تجارب الانتهاك الفرديّ والجماعيّ أيضًا في تقييم تأثير الحرب على الصحّة النفسيّة" (Giacaman, 2018). وتقترح أن نركّز على التجربة الجماعيّة للمجتمع الفلسطينيّ في سياق تعرُّضه لأشكال عديدة من إرهاب الدولة من قِبل الأجهزة الاستيطانيّة الكولونياليّة، وهو "التعرّض للعنف السياسيّ وغيره من أشكال العنف، وانعدام الأمن البشريّ، والقلق، وعدم اليقين، والإذلال، والحرمان، والإسكات، وانتهاكات حقوق الإنسان، وما إلى ذلك" (Ibid). ويجب الكشف عن هذه العوامل أو "المحدّدات السياسيّة للصحّة" وَ "المحدّدات الاجتماعيّة للصحّة"، وتقديم أساليب لتفكيك "الصرصعة"، وعلى أثر ذلك نستطيع معالجتها.

وبالتالي، في محاولتنا لفهم السياق الذي تعيش فيه الطفولة الفلسطينيّة، نحتاج إلى التمحيص في الطريقة التي يمارس بها الاستيطان الكولونياليّ الإسرائيليّ الحُكْمَ والسيادة على الحياة والطفولة الفلسطينيّة، مع التركيز على بيت /وطن الأطفال كحيّز يُستخدَم ويتشكّل فيه نوع خاصّ من العنف الاستيطانيّ الكولونياليّ لإعاقة وسَجْن الأجساد وسلب مشاعر وتجارب الطفولة والحياة الأُسَريّة لإبقائها في مجالات "صرصعة" دائمة، حتّى في داخل حيّزها الحميميّ وفي المنزل المخترَق دائمًا الذي من المفترض أن ينمو فيه الأطفال الفلسطينيّون ويفكّروا وينتموا ويحلموا ويبنوا المستقبل كما أشار بشّار ابن الخمسة عشر عامًا:

> حتّى هان بقلب بيتنا... فِشّ أمان... دائمًا فيه اقتحامات... بتفكّري طبيعي إنّه يوم وفاة جارنا، وكلّنا مصدومين من فاجعة موته بالسرطان، يفوت الجيش مع المستوطنين يضربوني ويعتقلوني مع ابن جيراننا ابن الفقيد... واحنا ببيوتنا، بغرفنا، قاعدين على التخت؟! معقولة وحشنتهم؟! استغلّوا جمعة الموت... كسروا البيت، ضربونا، وخلقوا حالة فزع... حتّى اليوم بعد سبع أشهر من اعتقالي، بعدنا منعيش خوف إنّهم يدخلوا كمان مرّة. من يوم اعتقالي دخلوا على البيت مرّتين بنصف الليل... وأخوي الصغير بعده لليوم ما بِنام إلّا مع إمّي... يعني سريرنا، بيتنا، حارتنا، مدرستنا... كلّ شيء مهدّد بالاقتحام.

عند العودة إلى السياق التاريخيّ لبداية الاستيطان والسلب الصهيونيّ منذ مطلع القرن الماضي وتعزيزه مع بداية الوجود الاستعماريّ البريطانيّ في فلسطين، وعند التمعّن في الجروح التي تُسبّبها منظومات وآليّات الاستيطان الكولونياليّ للبيت /للوطن وسماع سرديّات أطفالنا اليوم، نرى أنّها استمراريّة لِـ "الصدمة التاريخيّة والجماعيّة" التي كانت بمثابة ذروة لجميع أشكال السلب والقمع والطرد.

السيادة الكولونياليّة وأشكال العنف

لقد أكّد الفيلسوف النقديّ الكاميروني أشيل مبمبي أنّ السيادة الكولونياليّة تُبنى على ثلاثة أشكال من العُنف سنناقش أثرها على المستعمَرين وعلاقة هذا العنف بالطفولة واللا_طَفْلَنة الفلسطينيّة. أوّل أشكال العنف -كما أشار مبمبي- هو العنف المؤسِّس. ثانيها العنف العضويّ المرتبط بصياغة تعريفات مشرِعنة للاستيطان الاستعماريّ، وثالثها العنف المستمرّ والذي يضمن انتشار السلطة الكولونياليّة وقدرتها على الحوكمة، والمحافظة على هذه السلطة (Mbembe, 2001). إنّ النوع الأوّل من العنف، أي العنف المؤسِّس، يعطي شرعيّة لكلّ الممارسات السالبة للأرض، والحياة، وفرض الهيمنة والسيطرة والحكْم كصلاحيّات من بَعد حدث الغزو أو الحرب. وبالتالي فإنّ المشروع الاستيطانيّ الكولونياليّ الصهيونيّ وإقامة النظام السياسيّ الذي رمى إلى السيطرة على الأرض، منذ عام 1917 حتّى النكبة في عام 1948، يشكّل العنف المؤسِّس في قضيّتنا الفلسطينيّة. وتعود تاريخيّة هذه الممارسات، وبخاصّة القمع الشديد واقتلاع الفلسطينيّين من القرى والمدن والأحياء، إلى ممارسات الأجهزة الكولونياليّة البريطانيّة التي نحتت الآثار الأولى على ذوات الأطفال كرأس مال اجتماعيّ للفلسطينيّين. فعلى سبيل المثال، أثناء الثورة الفلسطينيّة في الأعوام 1939-1936، التي أسهم قمعها البريطانيّ في إنجاح المشروع الاستيطانيّ الكولونياليّ الصهيونيّ، كتبَ المؤرّخ صبحي بيادسة عن تجربة القمع

والهدم والإهانة البريطانيّة لأهالي باقة الغربيّة، حين كان يبلغ من العمر ثلاث سنين فقط، في عام 1938، قائلًا:

> حدث هذا في الـ 25 من شهر تمّوز عام 1938، وكان عمري آنذاك ثلاث سنوات. وعلى الرغم من صغر سنّي، كنت شاهدًا على أعمال إذلال وتعذيب من الصعب نسيانها، فكيف كان ذلك؟ سآتي على ذكره [...] وصبيحة اليوم التالي، أي يوم 26 تمّوز أُمِر الأهالي بإخلاء منازلهم ومغادرتها دون أن يتزوّدوا بأيّ شيء، وطولبوا بالتجمّع في ثلاثة مواقع: الرجال في كلّ من: خلّة الديك وبيادر السدرة، أمّا النساء ففي عمارة (كرم الزيتون) للمرحوم راشد مسعود مواسي، وكان الطقس في ذلك اليوم حارًّا جدًّا ومُنِعت فيه مياه الشرب عن المحتجَزات والمحتجَزين، هذا بالإضافة إلى الشتائم البذيئة وعبارات الإهانة والإذلال من قِبل الجنود الإنجليز المدجّجين بالسلاح. وفي لحظةٍ ما، قرّرت قوّات الاحتلال البريطانيّة إطلاق سراح النساء على ألّا يغادرن القرية ويبقَيْن داخلها. أمّا الرجال، فقد سِيقوا إلى معسكر نور شمس (القريب من طولكرم) مشيًا على أقدامهم المنهَكة، ومع كلّ ما ذاقوه من عطشٍ ومن مرارة الذلّ والهوان والشتائم والضرب بأعقاب البنادق، وفي هذا الحرّ القائظ حرّ شهر تمّوز، قضَوْا ليلتهم في العراء وهم يعانون الخوف والإرهاق، والجوع والعطش، ليعودوا في الغداة إلى قريتهم كما جاءوا مُشاةً، ليرَوْا ما حلّ في بيوتهم من دمار وأعمال بربريّة، اختلط فيها الأثاث بالزيت والطحين، وقرطاسيّة طلّاب المدارس (بيادسة، 2002، ص 109-110).

هذه التفاصيل تبيّن لنا آثار الأحداث الكولونياليّة في ذاكرة الأطفال، وأنّ الممارسات الكولونياليّة في فلسطين التاريخيّة ممتدّة لأكثر من قرن، وهذه التجارب هي وليدة بنْية تاريخيّة كولونياليّة عنصريّة تعمل من خلال منطق المحو والاستلاب. وما ذَكَرهُ بيادسة بشأن هول التدمير ضدّ القرية، وتجسيد الوحشيّة في اختراق المكان الفلسطينيّ والمجالات الحميميّة، وهدم البيوت، يعكس محاولات المستعمِر تحطيمَ المساحات الاجتماعيّة _ السياسيّة والجغرافيّة _ البيتيّة الحاضنة للطفولة الفلسطينيّة، ساعيةً إلى تفكيك المجتمع واقتلاعه وتشريده؛ وذلك لإلغاء حقّ الفلسطينيّ في المقاومة، ولخلخلة سيادته وقدرته على البقاء في أرضه. فعلى نحوِ ما أشارت الطفلة لَمى إلى مفتاح جَدّتها، هي تجد أنّ العنف الناجم عن تحقيق المشروع الصهيونيّ (أيْ أحداث النكبة ذاتها) هو الجرح المفتوح الذي يمثّل ذاكرتهم ومعاناتهم الأساسيّة، حيث ولّد غيابُهم الجماعيّ وإنكارهم واختراقهم ونزع حقوقهم شعبًا وأطفالًا النضالَ لا من أجل الأرض فقط، وإنّما كذلك من أجل الحقّ في البيت والحياة الكريمة. بموازاة هذا، الاحتفاظ والتمسّك بمفتاح البيت من منظور لَمى

[الحفيدة] يمثّلان توطينًا للتحليل، اعترافًا بالفقدان والتشتيت، والحقّ بالبيت، وذلك من خلال الاحتفاظ بمفتاحه، كرمز للحقّ بالحياة والمنزل وكعلاج لجروحها، والأمل في حياةٍ كريمة بعيدة عن صناديق القتل والإبادة المستمرّة. كلمات الأطفال تُحِيلنا إلى فهم منظومة التشريد والطرد والاستلاب كعمليّة مستمرّة، متأصّلة في الممارسات العسكريّة والأمنيّة وَ "القانونيّة" للدولة الكولونياليّة الاستيطانيّة. كصبحي الذي عايش النكبة، مصطفى الذي يبلغ من العمر 17 عامًا (من القدس) يجعلنا هو كذلك نعود إلى العنف المؤسِّس، نفكّر في العلاقة بين الممارسات التاريخيّة الكولونياليّة إزاء الشعب الفلسطينيّ وحالات المعاناة اليوميّة التي يعانونها، مؤكّدًا وعيه للإيذاء المستمرّ والذي يربط الحاضر بالماضي على نحوِ ما قال:

> التاريخ بِيعيد نفسه وبتتكرّر الأحداث؛ الهدم والقتل والاعتقال التمييز والتهجير... لَيِبعْدوا الناس عن الأسرة والبيت والأصدقاء. كم عدد الشهداء اللي لازم يسقطوا، كم عدد المصابين اللي نَزَفوا؟ شو عدد المنازل اللي هدموها...؟ التاريخ بِيعيد نفسه.

إنّ العنف السياسيّ الذي حدث بصورة تدميريّة في عام 1948 (علمًا أنّه بدأ قبل ذلك) يقوم بدور مهمّ في سرديّات الأطفال ويشير أنّ لديهم الحسّ العميق باستمراريّة النكبة وتَأْرَخة الحاضر في السياق الكولونياليّ. وبالتالي، في مسعانا للكشف عن جراح حياة الأطفال الفلسطينيّين في حيّزهم البيتيّ /الوطنيّ، لا بدّ لنا من أن نحفر معرفيًّا في النكبة كحدث جماعيّ للذاكرة والصدمة التي يُنسَب إليها الأطفال الفلسطينيّون؛ ونتعمّق في المعاني التي يؤطّرون بها آلامهم ومعاناتهم الفرديّة والاجتماعيّة (Giacaman, 2018; Sayigh, 2013). فهم يقرنون بين أعمال المقاومة اليوميّة للأطفال ويستعيدون النكبة لشرح آلام الحاضر، وللتحفيز على الصمود من خلال أمور تبدو صغيرة، كمثل الوصول إلى المدرسة على الرغم من صناديق القتل "المصرصِعة"، والتشديد على حماية مفتاح البيت، كمفتاح للحياة ومؤكّد للحقّ في الحياة بحرّيّة وكرامة.

أصوات الأطفال ورسائلهم وتجاربهم المختلفة التي جمعتها في كتاباتي تؤكّد أنّ بيت الطفل وحميميّته هما حيّزان تحليليّان مهمّان لتفسير وفهم الممارسات الكولونياليّة والسياسات اليوميّة التي تعمل على محو وإقصاء الطفل الفلسطينيّ، أو كما أشار خالد ابن السنوات الخمس:

> إذا بيتي مش قادر أرتاح فيّو... وين أروح؟! شو... بدي أضلّني مصرصع منهم، كيف ما حرّكت بوجهي؟! فش وين أروح... مش رايح محلّ... هدا بيتي... وراح أساوي اللي بدّي... آه آه... بدّي أحطّ أغاني محمّد عساف... بهربوا المستوطنين؟

فهْم نزع الطفولة من خلال تفكيك الممارسات العنيفة ضدّ البيت /الوطن، باعتبارها ممارسات عنيفة ضدّ الطفل، على الرغم من ثقلها النفسيّ، يخلق مساحات جديدة للروح كي تفتح أماكن جديدة للأمل والحياة ومقاومة آلات القتل الكولونياليّة، وإنْ كانت من خلال أغاني محمّد عساف كما قال خالد.

أربعة مَحاور في "نزع الطفولة"

في هذا الجزء، سأتحدّث عن نُظُم نزع الطفولة المرتبطة بالشكل الثاني من العنف الذي تحدّث عنه مبمبي في مناقشته للعنف الذي يُنتجه المستعمِر، بعد الغزو أي بعد العنف التأسيسيّ الذي حدث في فترة النكبة وكنت قد أشرت إليه أعلاه. يعتمد هذا الشكل على تطوير الدولة الاستيطانيّة لعنف عضويّ ليكون جزءًا لا يتجزّأ من كينونة ومنظومة المستعمِر، ويرتبط بصياغة تعريفات وتصنيفات "شرعيّة" أو مشرعِنة للاستيطان الاستعماريّ. وسأتناول ذلك من خلال أربعة محاور، وأَفْصل بينها نظريًّا فقط، ولكنّها متداخلة ومتشابكة على أرض الواقع وفي الممارسة، ويتداخل كلّ منها في الآخر.

- المحور الأوّل هو البنْية التحتيّة الاجتماعيّة _ القانونيّة (Sociolegal) للبتر الداخليّ _ المجتمعيّ؛

- المحور الثاني هو بنْية المشروع السياديّ الصهيونيّ الدينيّة _ التوراتيّة؛

- المحور الثالث هو الاستلاب والسيطرة على الأرض وتقليص الحيّز المكانيّ؛

- المحور الرابع هو الاقتصاد السياسيّ والتقنيّات "الأمنيّة" للمراقَبة والملاحَقة العسكريّة.

ما أودّ التأكيد عليه هنا أنّ هذه المَحاور تعبّر عن نسق كامل من العنف وصياغة الشرعيّة والسيادة الكولونياليّة للدولة الاستيطانيّة. يوفّر هذا الشكل من العنف لغة ونماذج تفسيريّة لإعطاء معنى لهذا النظام، لتبرير ضرورته، وإضفاء الشرعية على مشروع اللا_ طَفْلَنة الاستيطانيّة الاستعماريّة، بالتالي تكثيف قدرة المخيال الكولونياليّ لتحويل العنف إلى سلطة وسيادة (Mbembe, 2001)، بل حتّى إلى حقّ كما ينعكس في الدولة الصهيونيّة.

يركّز المحور الأوّل من مَحاور نزع الطفولة في مسح وفهم البنْية الاجتماعيّة _ القانونيّة، والتي تعبّر بدَوْرها عن تدخُّل قانون الدولة الاستيطانيّة واختراقها "بالقانون" للعلاقات الاجتماعيّة للفلسطينيّين، وذلك لتشتيت المجتمع وتعميق البتر الداخليّ _ المجتمعيّ.

وأقصدُ هنا قوانين وسياسات كولونياليّة[6] تعرّف وتعمل على إنشاء اليهوديّ الاسرائيليّ المتخيَّل، من خلال إقصاء ومحو الآخَر الفلسطينيّ "المُعرقن" (بَرْده، 2012؛ Esmeir, 2003; Jefferis, 2012). بالنظر إلى منظومة اللا_طَفْلَنة، أثَرُ القانون ينعكس على حصول الطفل الفلسطينيّ (أو عدم حصوله) على حاضنة أُسَريّة ومجتمعيّة، وهُويّة، وانتسابه لوالدَيْه، والتحاقه بمدرسة، وحصوله على حقوق كالتأمين الاجتماعيّ أو الصحّيّ وغيره. البنْية القانونيّة للدولة، التي تميّز بين الطفل اليهوديّ والطفل الفلسطينيّ منذ الولادة، وبين الفلسطينيّ المولود في إسرائيل وذاك المولود في القدس المحتلّة عام 1967، وتفضِّل الطفل اليهوديّ (بمن في ذلك الطفل اليهوديّ المولود خارج البلاد)، هذه البنْية تعمِّق التمييز والعنصريّة تجاه الطفل الفلسطينيّ، وتؤثّر على تسجيل وجوده في الكون، وخياراته الحياتيّة، وعلاقاته الحميمة، وتعمل على تفكيك وتعميق البتر الداخليّ _ المجتمعيّ عبْر السياسات القانونيّة الكولونياليّة.[7] على سبيل المثال، أوضح تقرير صادر عن بديل "مركز الموارد للإقامة الفلسطينيّة وحقوق اللاجئين" كيف تجبر المحكمة الإسرائيليّة أفراد العائلات الفلسطينيّة ذات مكانة مختلفة من حيث الحقّ بالإقامة على اتّخاذ قرار صارم: العيش معًا في خارج حدود 1948 (أي تعريض الزوج/ة الفلسطينيّ/ة الحامل/ة لهُويّة إسرائيليّة لخطر فقدان جنسيّته/ا الإسرائيليّة)، أو العيش في انفصال (على سبيل المثال: اختيار العيش في الضفّة الغربيّة أو في قِطاع غزّة، بينما يعيش الآخر داخل حدود الـ 48 أو في القدس المحتلّة)، أو المخاطرة بالعيش معًا ليشكّل العيش معًا -وبخاصّة لحاملي هُويّات مقدسيّة- اختراقًا لقوانين الدولة الاستيطانيّة الاستعماريّة، وليُبقي العائلةَ تحت تهديد دائم للانتهاك والاعتقال وسحب الهُويّات.[8]

ونذكر أيضًا أنّ الآليّات الأيديولوجيّة والقانونيّة التي تنبثق عن السياسات الكولونياليّة اليوميّة تخلق تحدّياتٍ حياتيّةً لدى الفلسطينيّين، ولا سيّما الأطفال. فعلى سبيل المثال، حين تقرّر الشرطة والسلطة الكولونياليّة وضع حاجز فجائيّ في مدخل بلدة من قرى القدس، ويُمنع

6. تتشكّل الدولة الكولونياليّة من خلال سلسلة من قوانين سياديّة، كقانون الجنسيّة وقانون المواطَنة، وسياسات تبني وترسم حدود تعريف المواطن اليهوديّ الاسرائيليّ المستعمِر (واليهوديّ غير الإسرائيليّ). تتضمّن البِنْية الاجتماعيّة _ القانونيّة رزم حقوق لا يملكها الآخر "المُعَرْقن" الفلسطينيّ. فالدولة الصهيونيّة منذ بداياتها طوّرت بنْية قانونيّة معرفيّة، استُخْدِمت من أجل تبرير الحكْم وسيادة القانون الاستعماريّ الواردة مثلًا في قوانين المواطَنة، كما سيتبيّن، لتفتح مساحات أوسع للتبريرات القانونيّة العنصريّة التي تقلّل من الحرّيّة وتؤدّي إلى إقصاء ونزع شرعيّة الفلسطينيّين، وإضفاء الشرعيّة على العنف ضدّهم. فقانون المواطَنة هو جزء من الآليّات الكولونياليّة المتجذّرة بتقسيمات عِرْقيّة، لتأطير الآخر وتسميته وتشكيله.

7. للاطّلاع على معلومات إضافيّة، انظروا: (Y. Jabareen, 2017; H. Jabareen & Zaher, 2012, February 10).

8. يناقش هذا التقرير أيضًا كيف يشكّل استهدافُ العائلات الفلسطينيّة، وإجبارُها على اتّخاذ مثل هذا الخيار، دليلًا على "الادّعاءات الديمجرافيّة" القائمة على العِرْق والعنصريّة وراء قانون المواطَنة، والحفاظ على الأغلبيّة اليهوديّة في الدولة من خلال منع الفلسطينيّين خارج حدود 1948 من أيّ طريق للحصول على الجنسيّة، وبصورة أكثر مباشَرة من خلال توفير وسيلة قانونيّة يمكن للحكومة من خلالها نقل السكّان الفلسطينيّين "المؤقّتين" من إسرائيل.

على أثر ذاك الطلّابُ من الوصول إلى مدارسهم إلّا إذا أثبتوا أنّهم حاملون لكوشان (وثيقة من وزارة الداخليّة) يثبت كونهم مقدسيّين، ويحملون رقْمًا وهُويّة مقدسيَّيْن، يصوَّر الطفل المقدسيّ دخيلًا أو غازيًا ينبغي تحجيمه ومعاقَبته. يتداخل هنا قانون المستعمِر، بمفاهيم ديمچرافية وَ "أمنيّة"، لتولُّد أطفال دون أوراق ثبوتيّة، فيحدَّدون مع الوقت ضمن مفاهيم إقصائيّة تمحو وجودهم على الرغم من وجودهم، تنزع تحديدهم كأطفال وتعرّفهم بأنّهم "خارقون للقانون"، أو "خطر ديمچرافيّ" أو "أمنيّ"، وتوجِب الدولة الاستيطانيّة الاستعماريّة منع حركتهم، ومحاسبتهم والتعامل معهم من خلال قرارات وسياسات قانونيّة وأمنيّة (Shalhoub-Kevorkian, 2012b).

على الرغم من ادّعاء الجهاز القانونيّ والسياسيّ الإسرائيليّ "الامتياز القِيَميّ" من خلال نشاط جمعيّات حقوق الإنسان وسيادة القانون، فإنّه لا يعامل الأطفال الفلسطينيّين كَ "أطفال" بالمفاهيم القانونيّة. وبدلًا من ذلك، تنظر إليهم الدولة في أماكن عديدة على أنّهم "غزاة"، "غير قانونيّين"، "إرهابيّون محتمَلون" ينتمون إلى نطاق قوانين الأمن والطوارئ وخارج مجال القانون المدنيّ. وبالتالي، القانون الإسرائيليّ يتأسّس على التقسيمات العِرقيّة والمسافة القائمة بينَ الطفل اليهوديّ وَ "الآخَر" الفلسطينيّ. إنّ القوانين النازعة والمخترِقة للطفل لا تنحصر في قانون المواطَنة ومعاملات "لَمّ الشمل" والجنسيّة، بل إنّها تتضمّن كذلك القوانين المتعلّقة بحرّيّة حركة الطفل الفلسطينيّ للوصول إلى المدرسة، وتلقّي العلاج (كما يمنع أطفال غزّة من الوصول إلى مستشفيات مقدسيّة لتلقّي العلاج)، وغير ذلك. تصف الطفلة نارمين (وهي من سكّان الخليل) تجربةَ الحواجز الكولونياليّة في محيط بيتها ومساحاتها قائلةً :

> بيتنا محوّط بنقاط تفتيش وحواجز: حاجز الصيدليّة؛ حاجز عبد؛ حاجز المخبز؛ حاجز 60؛ حاجز المسجد الإبراهيميّ [الضريح الإبراهيميّ] عند مدخل البلدة القديمة. كمان أقاموا مؤخّرًا نقاط تفتيش مؤقّتة على الطريق مع لافتات تقول "توقّف للتفتيش". وأحيانًا مجبرين نخضع لعمليّات تفتيش في جميع نقاط التفتيش هذه في يوم واحد (B'Tselem, 2016b).

وصف نارمين للحواجز العسكريّة المحيطة ببيتها يكشف كيف أصبحت عسكرةُ البيت والحيّ والمدرسة، ونقاطُ التفتيش الدائمة، أداةَ عنف استيطانيّةً كولونياليّة، بدلًا من أن تكون مساحةً من الانتماء الجماعيّ مُعَدّةً من أجل الأطفال، ولعبهم مع أصدقائهم، وخلق ذكرياتهم ونموّ هُويّتهم نموًّا طبيعيًّا. بدلًا من ذلك، تحوّل حيّز البيت والحارة والمدرسة إلى مساحة تتميّز بالعنف، حيث تتفشّى الجريمة الكولونياليّة، وحيث تجري مراقبة الحركة على نحوٍ واسع، واختراق المساحات الحميميّة للعائلات وأطفالها في محيط البيت والحارة، ولأولاد

وبنات الصفّ الواحد في محيط المدرسة، فاحصين لوثائق الأطفال، وحقّهم في الحضور هناك، والعبور في حيّزهم ووطنهم. ويجري ذلك في خضمّ الاستيطان المستمرّ وفرض سياديّة كولونياليّة للدولة، وإنشاء اليهوديّ المتخيَّل على أنقاض الأصلانيّة الفلسطينيّة. المساحات الحميميّة التي يعيش فيها الأطفال في حركتهم، وطنهم، حيّهم، ومنازلهم مضبوطة بقوانين المستعمِر، حيث يجري غزوها مرارًا من خلال المنظومات القانونيّة لسيادة الدولة الاستيطانيّة والتي تنتهك الروابط النفسيّة الاجتماعيّة، والمساحة والمكان. هذه السيطرة السوسيو_قانونيّة هي عبارة عن حرب لا متناهية تعيد كتابة القسوة والاقتلاع على أجساد الأطفال وذواتهم وعلاقاتهم الاجتماعيّة، وتخترق مساحات حياتهم الشخصيّة الحميميّة والعامّة (Shalhoub-Kevorkian, 2020) عاملةً على لا_طَفْلَنَتهم.

يتطرّق المحور الثاني من مَحاور نزع الطفولة إلى الادّعاءات والأساسات المعرفيّة الكولونياليّة في فلسطين، باعتمادها على خطاب لاهوتيّ صهيونيّ يقوم على تاريخ ورمزيّات وصور وأنماط ثقافيّة وتوراتيّة. تنحو الدولة الاستيطانيّة الكولونياليّة إلى إعادة رسم الجغرافيا وتشكيلها وَفقًا للتاريخ الدينيّ اللاهوتيّ التوراتيّ، ويتضمّن ذلك معاييرَ ديمچرافيّة واجتماعيّة واقتصاديّة تُحْدِث بدَوْرها ممارسات نيكرو_سياسيّة محدِّدة الفلسطينيّين على أنّهم غزاة، وعلى أنّهم آخَر "خَطِر" ينبغي الحذر منه وإخراسه، وتُنتِج بها المستوطِنَ على أنّه أصلانيّ، أُعطِيَ له الحقّ بالأرض بناءً على سرديّات دينيّة توراتيّة (Rouhana & Shalhoub-Kevorkian, 2021). استخدامُ النصوص الدينيّة التاريخيّة القديمة، وإعادةُ إنتاجها في الحاضر الصهيونيّ _ التوراتيّ الكولونياليّ، وانعكاسُها في قوانين ومنظومات الدولة، كلّ هذه تفعّل تقنيّات اقتلاع الفلسطينيّ من واقعه ومحيطه ومجتمعه، وتؤكّد قدسيّة وجود اليهوديّ فقط. ومع تحديث سرديّات الأرض "المقدّسة، لليهود فقط" في حكم اللا_يهوديّ، ازداد تهميش الحقّ للفلسطينيّ وكُثِّفت سياسات الإقصاء والسلب والمحو، ممّا سلب الفلسطينيّ حقَّه في بناء حياة وبيت آمن لأطفاله وعائلته. فرْض السرديّة التوراتيّة المُعَرْقَنة جعل كلّ طفل فلسطينيّ "آخَر" وَ "غازيًا" وَ "خطرًا" على الكيان. ومع تداخل السرديّات التوراتيّة، مع سرديّات حَوْكَمة المستَعمِر للسيطرة على أرضه وموارده وحياته، طُوِّرت قوانين وتقنيّات تهمِّش وتمحو وتلغي الأطفال الفلسطينيّين من معادلات الدولة الاستيطانيّة الصهيونيّة. ففي القدس -على سبيل المثال- تستخدم الدولة ومؤسّساتها المخيالَ الصهيونيّ _ اللاهوتيّ من خلال عنف المستوطنين اليهود العاملين بحسب تعليمات "دينيّة"، وبنادق الجنود والشرطة والحواجز التي تعمل بالتعاون مع خبراء الآثار للبحث عن حفريّات وأدلّة، جاهدين للكشف عن برهان "علميّ" يدعم سرديّتهم التوراتيّة، ليؤكّدوا حقّهم باعتبار أنّهم "شعب الله المختار"، الشعب الوحيد الذي أعطاه "الله" الحقّ بالوجود في الأرض والمسكن في هذه البلاد. هذه

الاستعادة تشمل ممارسات قمع ومضايقات في أحياء وأزقّة القدس، لتخلق واقعًا يوميًّا كولونياليًّا ملؤه العنف، يَكون الطفل في مركزه في كثير من الأحيان.

يقدّم المخيال الصهيونيّ -على نحوِ ما يتجسّد في ممارساته المادّيّة؛ الديمچرافيّة والجغرافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة- وصفًا مقْنعًا للطريقة التي يكون بها جسد المستعمَر "لا أحد"، والمساحات والأرض "فارغة". ويعمل هذا المخيال على إنتاج وإنشاء اليهوديّ المتخيَّل الحديث "الصبرا" المولود في "أرض إسرائيل" الذي يُبدي سِمات القوّة مقابل ضعف يهود الشتات. وهذا يعطي معانيَ جديدة وتشكيلات لاهوتيّة دينيّة لِـ "العودة اليهوديّة" إلى "أرض الآباء والأجداد"، وصياغةُ هذه السرديّة لا تؤدّي فقط إلى بناء هرميّات سياسيّة وبيولوجيّة وعِرْقيّة وطبقيّة، بل إنّها في الواقع تبرّر هذه الهرميّات (Raz-Krakotzkin, 2021).

يتجاوز الخطابُ التوراتيّ _ الدينيّ التاريخَ الفلسطينيّ العربيّ، معتمدًا على أدلّة أثريّة انتقائيّة لمحو الحضور الفلسطينيّ الأصلانيّ. يتضمّن التهميش والمحو لثقافة وتاريخ الأصلانيّين دعمًا من المشاريع الكولونياليّة الأوروبيّة التاريخيّة، سواء أكان ذاك معرفيًّا أَمْ مادّيًّا (Said, 1979)، وإضفاء الشرعيّة من خلال الادّعاءات التوراتيّة. ويصوّر الفلسطينيّين على أنّهم غرباء بالفعل، كأجانب على الأرض بحيث يشكّل الوجود الفلسطينيّ تهديدًا للسيادة الإسرائيليّة، وضدّ الشعب اليهوديّ. هذه الادّعاءات الدينيّة تكثّف سيرورة "اللا_طَفْلَنة" عبْر القوانين والسياسات المتعدّدة المرتبطة بالبنْية التحتيّة القانونيّة لتفكيك أوصال المجتمع الفلسطينيّ وتعميق البتر الداخليّ _ المجتمعيّ (كما أوضحنا في المحور الأوّل). وتبرّر إسرائيل ذلك من خلال "حالة الطوارئ" المستمرّة التي تستمدّ قوّتَها والحاجةَ إلى الدفاع عن النفس من الخطاب الصهيونيّ التوراتيّ. وتتشكّل هذه السرديّة عبْر بناء إسرائيل معرفيًّا على أنّها دولة الشعب اليهوديّ مستخدِمة كلًّا من الخطاب الكولونياليّ الأوروبيّ والمفاهيم الغربيّة للسيادة، وتداخلها مع اقتباسات من القصص التوراتيّة بشأن الوجود الدينيّ اليهوديّ في فلسطين التاريخيّة، لتحويل الطفل الفلسطينيّ إلى خَطرٍ دينيّ وأيديولوجيّ على الصهيونيّة، ويأتي ذلك انعكاسًا لِـ "الخطر المادّيّ والديمچرافيّ"، الذي يشكّله المستقبل الذي يحمله الطفل، على المشروع السياديّ الصهيونيّ (Shalhoub-Kevorkian, 2019). وبِذا، وحسب هذا المنظور، يصبح الطفل الفلسطينيّ "خطَرًا" وَ "تهديدًا أمنيًّا" منذ لحظه ولادته. وإن كان الأمر كذلك، فإنّ التعامل معه -وإنْ كان طفلًا- هو تعامل مع خطَر. لقد أدّى إضفاء القدسيّة التوراتيّة على الخطاب السياسيّ الإسرائيليّ إلى الحصول على دعم عالميّ، كما يتّضح -على سبيل المثال- في إعلان الرئيس دونالد ترامپ، في كانون الأوّل عام 2017، أنّ القدس هي عاصمة دولة إسرائيل، وإلى تدعيم آليّات العنف الاستيطانيّة مِن سلب للأراضي والأرواح والمستقبل. والحديث هنا عن المستقبل هو حديث عن حصريّة طفولة اليهوديّ ومستقبله

ومحو مستقبل الفلسطينيّ ولا_طَفْلَنَته. الخطاب اللاهوتيّ، في نفاذه وممارسته، يحافظ على جوهر الصهيونيّة الفوقيّ لحصريّة اليهوديّ، مهمِّشًا قضيّة مركزيّة في التحليل السياسيّ للقضيّة الفلسطينيّة، ألا وهي كون الطفل الفلسطينيّ طاقة وثبوتيّة ومستقبل القضيّة الفلسطينيّة. السرديّة الدينيّة _ التوراتيّة تغزو أرقّ روابط المجتمع وأكثرها حميميّة، وتنزع وتعتقل الطفولة الفلسطينيّة، مؤكِّدة أنّ تطبيق "رغبة الله" مع "شعبه المختار" يتطلّب محو الحقّ في طفولة الفلسطينيّ ومستقبل أمنه. تَبَنّي الادّعاءات الدينيّة يقلب سيادة الدولة اليهوديّة إلى أمر مقدَّس ليس في الإمكان زعزعته، ويؤكّد أنّ الدولة اليهوديّة (أبناءَها؛ قانونَها؛ سياساتِها -بما في ذلك الاستيطان المُمَنْهَج والمبرَّر بادّعاءات دينيّة) "من حقّها" أن تكثّف سياسات الإقصاء العِرْقيّة والدينيّة والجندريّة، بما في ذلك لا_طَفْلَنة الأطفال. وعلى أثر ذلك، تحتلّ الطفولة الفلسطينيّة موقعًا مهمًّا لتطبيق الادّعاءات الدينيّة لمنظومة الاستعمار الاستيطانيّ، كمقدّمة لمحو مستقبل المجتمع الأصلانيّ من خلال نزع الطفولة. وابتغاءَ تقوية الادّعاء الدينيّ، تُنتِج الكولونياليّةُ الاستيطانيّة ماديًّا ومعرفيًّا "المستوطِنَ المقدَّس" الذي "يخلّص" "أرض الميعاد"، ليفرض "شرعيّة" السرديّة اليهوديّة _ التوراتيّة في الأمن والحياة والسلامة، على حساب حقوق الفلسطينيّين في العدالة. ولا يمكن إنكار أنّ سيرورة "اللا_طَفْلَنة" تتأثّر وتتشابك مع نظام عالميّ يُشَرْعِن هذه السرديّة التوراتيّة، وبالتالي يسهم ويتورّط في التأكيد على مفاهيم "الاستيطان المقدَّس" في فلسطين عمومًا، وفي القدس على وجه الخصوص. إنّ العنصريّة وأيديولوجيا "الفوقيّة العِرْقيّة اليهوديّة"، التي تؤسِّس لها روايات توراتيّة وإنجيليّة، تتجلّى أيضًا في اختراقات جيو_سياسيّة من الإخلاء والحجز (الجدار والحدود وبطاقات الهُويّة ونقاط التفتيش) -وهذا يحيلنا إلى المحور الثالث.

يفحص المحور الثالث الأبعاد المكانيّة والجيو_سياسيّة لتحليل منظومة الاستعمار الاستيطانيّ، وكيفيّة عملها في تقليصِ الحيّز وسلبِ الأرض من الأصلانيّين الفلسطينيّين. هذه الأبعاد تتقاطع بشدّة مع الادّعاءات الدينيّة (تطرّقت إليها في المحور الثاني) التي تبَلْوَرت بصيغة اللاهوت الأمنيّ بالمفاهيم الإقليميّة لإسرائيل، مستعمِرة المكان الفلسطينيّ، والتي تَحُول دون مستقبل المجتمع الأصلانيّ وتعمل على لا_طَفْلَنة أطفالهم. وكي نفهم المنظومة وممارستها في المكان والحيّز والمساحة وأثرها على المجتمع الأصلانيّ، علينا إعادة تعريف الحصر وحبس الطفل الفلسطينيّ في وطنه. فبينما تطرحه التعريفات التقليديّة على أنّه أسر، احتجاز في مكان واحد، أو حبس لمدّة معيّنة وفي مكانٍ محدّد، يعني مصطلح "الحصر والحبس" في سياقنا على نحوٍ أكثر تحديدًا إبقاءَ الطفل الفلسطينيّ في قفص تحت السيطرة، أسيرًا في بيته ووطنه، في حيّز من الإماتة التطوُّريّة، الاجتماعيّة _ السياسيّة، وتبلغ في بعض الأحيان حدّ الإماتة الفعليّة. حصر الإنسان في قفص وحدود مكانيّة يرسم الفضاءَ ويقلّصه، يحجز ويحبس الحركة، ومناليّة الحياة، والتواصل يعمل من

خلال منظومة نيكرو_سياسيّة متأصّلة باقتصاديّات إماتة. طرح مفهوم حصر وحبس الطفولة لا يشير إلى الجوانب المادّيّة لتقييد الفضاء الطفوليّ فحسب، بل يتعدّاه إلى محاولات خنقه وحصره (على نحوٍ فعليّ كما يجري في غزّة، أو بإبقائه/ها أسيرًا أو معتقَلًا، ونزع قدرته على النموّ بأمان...) في وطنه. ويتعمّق مفهوم الحصر والسَّجن حيث لا تكون القيود المفروضة مكانيّة بحتة، أو تتعلّق فقط بالاحتجاز المكانيّ، وإنّما تتعدّاها مطوِّرة أنماط حبس تعتمد على تصنيفات عِرْقيّة بحتة. وبالتالي، فإنّ تحليل ميتافيزيقيا الحبس والسَّجْن يؤثّر بالمقابل على المعاني المحتمَلة للمساحة التي يُحصَر فيها الطفل، ويتطلّب فهمًا أوسع لفضاءات الحصر قد يشمل مَراجع، نحو: مساحة النموّ؛ المساحة التي نفكّر فيها؛ الفضاء الذي نحلم فيه؛ الفضاء لبناء المستقبل. بالنظر إلى أنّ سياق هذا المحور، والغرض من الفصل عمومًا، هو بتر السيادة والقيادة السياسيّة واستخدام "الطفولة الفلسطينيّة" على يدِ المؤسّسة الكولونياليّة الإسرائيليّة، فإنّ حصر فضاءات الطفولة والحجز الذي أشير إليه يتطلّب تحليله من خلال ثلاثة مفاهيم: الطفولة الفلسطينيّة؛ المشروع الصهيونيّ؛ الحبس والأَسْر (في المعنى الميتافيزيقيّ والأنطولوجيّ) -وذلك كتعبيرات وممارسات للأيديولوجيا العنصريّة.

نَسوق مثالَيْن على ذلك: أثناء تطبيق قوانين الطوارئ التي أعقبت قيام إسرائيل، كان الفلسطينيّون داخل حدود الدولة الجديدة، وفي فترة الحكم العسكريّ التي استمرّت نحو عشرين عامًا، بحاجة إلى الحصول على إذن للحركة خارج قراهم وبلداتهم. وحتّى الآن، لا يستطيع الفلسطينيّون الذين يحملون الجنسيّة الإسرائيليّة إنشاء مدن وقرى جديدة، على الرغم من تقليص مساحات مدنهم وقراهم، وَفقًا لمعايير وهندسات جيو_سياسيّة تتأسّس على التصنيفات العِرْقية والدينيّة (Human Rights Watch, 2011). ذاك يبيّن لنا معانيَ جديدة لمفهوم السجن والحبس المكانيّ وكذلك الوجوديّ للهُويّة، أي إنّ الوجود الفلسطينيّ وهُويّته وتعبيراته وأشكاله الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة مسجونة، وهو ما يؤدّي إلى آثار عنيفة على الطفولة الفلسطينيّة، وتجربتها الاجتماعيّة، ويقلّص مساحات الأطفال الحميميّة في العائلة والبيت والمجتمع. في ظلّ الأنظمة الاستعماريّة، تصبح الطفولة جزءًا من رأس المال السياسيّ الذي يُستَغلّ لإيذاء المسار الاجتماعيّ الحميميّ الطبيعيّ، ولتوظيفه على أساس التصنيفات والانتماءات القوميّة والدينيّة وَ/أو الإثنيّة والعِرْقيّة (وغالبًا ما يجري تحديد هذه الخصائص المميِّزة وتحديدها من قِبل المستعمِر حصريًّا). والمشترَك بين هذه الأنظمة في هذا الخصوص هو الجهد المتضافر للحدّ من حركة الأطفال، ميتافيزيقيًّا ونفسيًّا وجسديًّا، وبالتالي تضييق حيّزهم وتقليص قدرتهم على رفض الغبن. عندما نشاهد هؤلاء الأطفال الذين تراقبهم وتحاصرهم أعيُنُ المستعمِر (أبراج المراقبة -على سبيل المثال)، وحينما نسمع أصوات الأطفال ونستمع إلى ما شَهِدوه، فإنّنا ندرك مدى إعاقة تقدُّمهم لا للتحكّم بالطفولة واحتجازها وحبسها ونزعها فقط، بل كذلك لمحاولة تقويض قدرتها على المقاومة.

تنتزع المنظومة الكولونياليّة الاستيطانيّة الطفولةَ الفلسطينيّة على نحوٍ يوميّ، عبْر منطق الاستيطان الاستعماريّ في السيطرة العنيفة على الأرض، وتقليصها لمساحات التحرُّك واللعب والتعليم وتواصُل الطفل الفلسطينيّ مع هُويّته وأهله. فقد أوضحت شهادات الأطفال وتحديداتهم لطرح مصطلح "نزع الطفولة" اليوميّ، الحيّزيّ، البيتيّ، العائليّ، الحقوقيّ، وفي أحيان معيّنة النفسيّ كذلك، رؤية الطفولة الفلسطينيّة من منظار وطابع يجسّدان عنف المنظومة وأيديولوجيّتها المُعَرْقنة.

إنّ أصوات الأطفال وكلماتهم تؤكّد أنّهم غير آمنين في منازلهم وقراهم ومدنهم، فضلًا عن أنّ تطوُّرهم الطبيعيّ النفسيّ والعقليّ والجسديّ محجَّم بمعايير المستعمِر، ومقيَّد بآليّات العنف والمراقَبة المستمرّة الشاملة على حياتهم وعلى حركتهم. فليس من قَبِيل المبالغة القولُ إنّ طفولتهم نفسها مستهدَفة من قِبل الدولة. وفي الواقع، ما يعايشه الطفل من تقييد بصورة مفْرِطة من قِبل أجهزة الدولة، باعتبارهم تهديدًا أمنيًّا، يؤدّي إلى إبقائهم الدائم في حيّز مضبوط، أقفاص احتجاز متعدّدة المناحي، ولا نرى ذلك جليًّا في غزّة وفي مخيَّمات اللاجئين وفي القدس المحتلّة فحسْب، وإنّما نراه كذلك في الداخل الفلسطينيّ في مناطق الـ48 على نحوِ ما يبرز جليًّا في النقب وبخاصّة القرى غير المعترَف بها.

في المحور الرابع، أنطلق من تحليل الاقتصاد السياسيّ للعسكرة والمراقَبة الضبطيّة في الإطار الصهيونيّ الاستيطانيّ _ الاستعماريّ. في هذا الصدد، يتّضح مفهوم ثيولوجيا الأمن للدولة الاستيطانيّة الكولونياليّة عبْر تشكيل علاقات عضويّة بين الاقتصاد السياسيّ المتنامي لصناعات الأمن وَ "العسكرة" وتقنيّات المراقبة، كجزء من نمط التراكم النيوليبراليّ، في علاقته المحدَّدة والخاصّة مع منظومات استيطانيّة كولونياليّة. تعمل هذه المنظومات من خلال علاقات تَوْأَمة بين تطوير سوق الصناعات الحديثة لتكنولوجيّات الحرب، والقمع، والمحو من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى مع منظومات الاستيطان الكولونياليّ التي تستهدف أبناء المجموعات الأصلانيّة، وتبتغي إلغاءهم بطرق سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة. وتبلغ هذه الممارَسات في حالات عدّة حدَّ الإبادة الفيزيائيّة المادّيّة. نَسُوق في ما يلي مثالًا على ذلك: بعد غزو غزّة في صيف عام 2014، وافانا الصحافيّون بشأن كيفيّة تسويق الشركات الإسرائيليّة لماكيناتها وآليّاتها العسكريّة والتي استُخدِمت ضدّ الغزّيّين، مشيرين أنّها "أثبتت جدارتها في القتال". ويصبح "الإثبات في ساحة المعركة" إثباتًا يعمل على أجساد الفلسطينيّين المُحاصَرين والمستهدَفين، بما في ذلك استخدام اللا_طَفْلَنة ربّما كسلاح يُباع ويروَّج له على أنّه "أثبت نفسه في ساحة المعركة". إذًا أصبحت غزّة مختبَرًا يساعد مطوّري ومستخدِمي الأسلحة الإسرائيليّة في تجربتها ومن ثَمّ تصديرها كتقنيّات حرب فعّالة. لقد اشتبكت هذه الصناعات العسكريّة عضويًّا بالاقتصاد الإسرائيليّ، وحوّلت غزّة إلى مختبر للآليّات الإسرائيليّة

(Li, 2006; Salamanca, 2011)، جاعلةً حيّز الأطفال في غزّة وحياتهم حيّزًا عقابيًّا. فقد أصبحت الحوافز والأرباح الماليّة من الأراضي المحتلّة في عام 1967 ضروريّة وعضويّة للمنظومة الاستيطانيّة الكولونياليّة، كمواقع ومساحات تُستخدَم كمختبرات "حيّة" لتقنيّات الحرب والتكنولوجيّات العسكريّة، وكذلك استُخدِمت اللا_طَفْلنة كآليّة إلغاء، تُمارِس فيها الأجهزة الأمنيّة والعسكريّة اختبارات للتقنيّات والتكنولوجيّات العسكريّة الحديثة والمتطوّرة ضدّ الأطفال الفلسطينيّين. ويصبح "نزع الطفولة" مُرْبِحًا عبْر تطوير تكنولوجيّات وأسلحة "أثبتت قدراتها في التجربة الحيّة"، وكان استعمالها مدعومًا كذلك بمزاعم دينيّة وأمنيّة أدّت إلى تكثيف العنف ضدّ الأطفال بالتوازي مع إضفاء شرعيّة على هذا العنف. هذه الأسلحة التي "أثبتت جدارتها في القتال" اعتَبَرت أجساد الأطفال الفلسطينيّين وحياتهم أشبه بمختبرات بشريّة (Li, 2006; Puar, 2015, 2017; Pugliese, 2015; Salamanca, 2011)، وشكّلت مساحاتهم ومجالاتهم كسجون مغلَقة وجوديًّا ومكانيًّا. أضف إلى ذلك أنّ الأجهزة العسكريّة والإعلاميّة والثقافيّة الكولونياليّة تبرّر جرائمها وضحايا الأطفال الفلسطينيّين باعتبارهم "شرًّا لا بدّ من القضاء عليه"، أو كما صرّحت وزيرة العدل الإسرائيليّة السابقة أيّيلِت شَكيد عندما قالت إنّ الأطفال الفلسطينيّين أفاعٍ صغيرةٌ (Shalhoub-Kevorkian, 2019, p. 19).

تصنيفُ الفلسطينيّين في منزلة متدنّية من الناحية العنصريّة والأنطولوجيّة، واحتجازُهم في مناطق عدم الوجود، وفي مساحات جيو_سياسيّة تمارِس فيها الكولونياليّة الإسرائيليّة المحو بأشكال متعدّدة، هذا التصنيف وهذا الاحتجاز لا يجري إنتاجهما وإعادة إنتاجهما في اجتماعات حكوميّة وفي السياسة العالميّة فحسْب، بل كذلك يجري تنظيمهما وتكرارهما في منصّات الإعلام. تعمل الأجهزة العسكريّة على تبرير جرائمها، عبْر تأطيرها ضمن "الحرب على الإرهاب"، وتتكثّف شراسة العنف والهجمات وممارَسات المحو الجماعيّة التي لا تنتهي، كما حدث في غزّة في نيسان عام 2018، وإطلاق النار واستهداف الأطفال والنساء والرجال والصحافيّين وتشويه وإصابة آلاف الفلسطينيّين المتظاهرين في مسيرات العودة في غزّة. على حدّ تعبير الضابط العسكريّ تْسْفِيكا فوجل: "أيّ شخص يهدّد حدود إسرائيل يُقتل" (Reshet Beit, 2018). وحينما أدان المراسل (الإسرائيليّ) إطلاق النار على طفل يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، قال: "كلّ من يهدّد حدود إسرائيل يُحْكَم عليه بالإعدام". إنتاج التفويض للدولة وأجهزتها العسكريّة للحكم على الأطفال بالإعدام في منصّات الإعلام يولّد معانيَ جديدة للشرعيّة والسيادة الكولونياليّة، ويمكنه أن يكثّف اللا_طَفْلَنةَ، عبْر ممارساتٍ سالبةٍ للحقّ في الوجود في الأرض، ومنطقَ المحو الجماعيّ (Masalha, 2012a, 2012b). التقنيّات العسكريّة وتكنولوجيّات الإبادة هي جُزء من الاقتصاد السياسيّ ونمط التراكم (النيوليبراليّ) لمنظومة استيطانيّة كولونياليّة، ويترتّب على ذلك خوض الحرب والقصف

والقتل وتشكيل مجالاتٍ جيو_سياسيّة للموت وبالتالي تحديد الأطفال على أنّهم لا_أطفال، محكوم عليهم باللاوجود لكونهم فلسطينيّين. ونحن اليوم نشهد اللحظة التاريخيّة للمنظومة الاستيطانيّة الكولونياليّة التي تحاول فيها إحكام هيمنتها وإكمال مشروع السلب والمحو إزاء المجموعة الأصلانيّة في فلسطين التاريخيّة (Wolfe, 2006)، ويتضمّن ذلك إنتاج الأطفال الفلسطينيّين على أنّهم "إرهابيّون" ثقافيًّا، وَ "فائض أصلانيّ" من منظور الاقتصاد السياسيّ الكولونياليّ، ويلي ذلك التشويه الجسديّ والسجن والمحو بطرق عدّة.

إنّ تشكُّل سيرورة "نزع الطفولة"، من خلال المستويات الأربعة التي حلّلناها أعلاه (بنْية اجتماعيّة وقانونيّة؛ بنْية دينيّة توراتيّة؛ استلاب وسيطرة؛ اقتصاد سياسيّ داعم) يحرّك انتشار السلطة والمنظومة الاستيطانيّة الكولونياليّة، باختراقها المساحات والمجالات النفسيّة _ الاجتماعيّة لدى الطفل في المجتمع الأصلانيّ، وبدَوْرها تتأسّس هذه السلطة على الأنساق العنيفة والأيديولوجيّات العنصريّة، كما أوضحتها. فالمحور الأوّل أكّد على الآليّات الاجتماعيّة _ القانونيّة التي تحفّز البتر المجتمعيّ _ الداخليّ واستخدامات القانون والسياسات في ممارسات مستمرّة لاختراق العائلة والمجتمع أساسًا، بينما ركّز المحور الثاني على عمليّات تكثّفُ خطاباتٍ وأيديولوجيا دينيّةً توراتيّةً إنجيليّةً، وذاك أحالنا إلى المحور الثالث الذي أبرز كيفيّة الاستحواذ الدائم على الأرض، وإعادة رسم الجغرافيا والطرق، وتفكيك التواصل الجغرافيّ للمجتمع الفلسطينيّ، وخاصّة ما يجري بكثافة في القدس والنقب والضفّة الغربيّة ولم يُنتِج بترًا جغرافيًّا فقط، وإنّما أنتج كذلك محاولات لا نهائيّة من البتر الاجتماعيّ والنفسيّ. المحور الرابع الاقتصاد السياسيّ ونمط التراكم النيوليبراليّ، المعتمِد على التقنيّات والتكنولوجيّات العسكريّة، التي تعمل بدَوْرها على تعزيز الأنساق العنيفة، وتثبيتها، وهي بمثابة الرافعة الاقتصاديّة الأساسيّة الراهنة للمنظومة كاملة، وخاصّة في ما يتعلّق بممارسات ومنطق نزع تجارب الطفولة الفلسطينيّة، ويصل ذلك إلى تشويه الجسد وإعاقته واستكمال عمليّات المحو.

الختام: المقاومة المستمرّة للّا_طَفْلَنة

في مسار محادثاتي، ولقاءاتي، وتجميعي لرسائل الأطفال الفلسطينيّين، في القُدس والخليل والنقب وغزّة وغيرها، لاحظتُ إصرار الأطفال وتصميمهم على حقّهم في اللعِب، وفي الوصول إلى المدرسة والطبيب، وزيارة الأقرباء واللقاء مع أصحابهم، والالتحاق بدورات وفعّاليّات منهجيّة ولا_منهجيّة، وفي المقاومة وغير ذلك، مصرّين على طفولتهم، متَحَدّين لمخطّطات وبُنى الهيمنة، معيدين صياغتها بأساليبهم الخاصّة. فعند جمع كلمات لَمى من القدس وكلمات أمل من الخليل، كشف الأمر عن تصميم الأطفال على مقاومة "الشكل الثالث من

العنف" الذي يتحدّث عنه مبمبي، وهو العنف الذي "صُمِّم لضمان الحفاظ على السلطة [الكولونياليّة] وانتشارها واستمراريّتها" (Mbembe, 2001). تحليلُ سرديّات الأطفال، وربطُها بالمعطيات المشيرة إلى استهداف المنظومة الكولونياليّة للأطفال، يُبرِزان العنف المُمَنْهَج الضامن بعنصريّته وبطشه انتشارَ واستمرارَ نزع الطفولة، ولكنّها أيضًا تؤكّد على قدرات الأطفال على ابتداع طرق رفض للعنف الكولونياليّ -ولا سيّما اللا_طَفْلَنة.

من هنا يأتي مصطلح "نزع الطفولة" أو اللا_طَفْلَنة ليؤكّد على أهمّيّة كشف العمليّات الممنهَجة والبنيويّة التي تنتجها الدولة الاستعماريّة وتعيد إنتاجها، محاولةً شلَّ التطوُّر الطبيعيّ لدى الأطفال، وإعاقةَ احتوائهم أُسَريًّا ومجتمعيًّا وسياسيًّا. إنّ عمليّات اللا_طَفْلَنة تحتجز الحركة، وحرّيّة المعيشة، والنموّ، والتنقّل، وتُفكّك وتعمل على بتر المجتمع وتسريع عمليّة اقتلاعه عند تعرية أطفاله من الأمان واليقين، وتُزعزع التواصل، وتُشرذم الحيّزَ الفلسطينيّ (الأرض والذات والمجتمع)، وبالتالي تضرب قدرة الطفل على الحصول على نموّ آمِن، وعلى حماية والديّة ومجتمعيّة حميميّة وغير مخترَقة طبيعيّة. وتُستخدَم سياسيًّا لتصوير الطفل كخطر أمنيّ يجب التخلّص منه. هذه العمليّات السياسيّة المَمَنْهَجة للمنظومة الاستيطانيّة، الاستعماريّة، المُعَرْقنة، ترمي إلى إنتاج أطفال فلسطين كَ "لا_أطفال" وكتهديد للدولة يسهّل إيذاءَهم ويسمح به. هذه النظرة الكولونياليّة لا تنكر وجود الأطفال، ولا تعمل على "إنقاذهم"، أو "تطويرهم حضاريًّا" كما ادُّعِيَ في سياقات استيطانيّة استعماريّة مشابهة، وإنّما تتعامل معهم وتحدّدهم وتُشكّلهم كَ "غزاة" وَ "غير-تابعين" وَ "مُجرمين" وَ "خطر أمنيّ" وَ "إرهابيّين" يخيفون ويهدّدون السيادة الصهيونيّة، وبالتالي يجب إلغاؤهم. وبِذا تصبح اللا_طَفْلَنة في السياق الاستيطانيّ الاستعماريّ للدولة الصهيونيّة جرائمَ دولة تعمل لترك آثار مدمّرة في محاولاتها لمحو المستقبل الفلسطينيّ (Taussig, 1992).

في المقابل، تتحدّى ممارساتُ الأطفال الفلسطينيّين البناءاتِ والعنفَ الكولونياليَّ في حربها الدائمة على مساحاتهم. فنرى قوّة الأطفال جليّة عند التأكيد على طفولتهم، رافضين الممارَسات التي من خلالها تفرض الدولة سلطتها على أجسادهم وحياتهم، عبْر خطواتهم غير المهادِنة ضدّ عنف الدولة والمتمثّلة في التحدّي -على سبيل المثال- لِما أسماه المحتلّ "أبراج مراقبة"، تلك التي وُضِعت في باب العمود في القدس ليحدّدوها كَ "صناديق قتل" بُنِيَت حتّى "تصطاد" وتقتل الفلسطينيّين الأطفال، كما شدّدت لَمى، أو كأقوال علي (12 عامًا، من غزّة) عندما شدّد قائلًا: "غزّة مش سجن... هي مكان بلا حياة... ملانة سجون موت... والمسيرة [يقصد هنا مسيرة العودة الأسبوعيّة التي يشارك فيها] ... هيّي هيّي حياة ... وموت آه... موت"، وأحمد البالغ من العمر 13 عامًا من غزّة عندما قال: "في بعض الحالات، بِيكون الموت أفضل حلّ إلنا"، ووائل (14 عامًا) حين قال: "الحياة أصبحت سلسلة

من الحلقات المؤلمة... عشان هيك بَدْرس... بَروح على البحر، بَدِير بالي على إخوتي... بَس هيك بَقاوم الاحتلال... وبَعِيش". التعمُّق في تصوُّرات ومقاصد الأطفال، وفي منظورهم للحياة والموت، يتطلّب أن نركّز على تجربتهم الحياتيّة ومفرداتهم التي تؤكّد تصميمهم على رفض لا_طَفْلَنَتهم، وأن ننظر إلى تعبيراتهم اللغويّة، وخطواتهم اليوميّة، ومشارَكاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة، وبنائهم لمستقبلهم، وحتّى حبّهم، من خلال جدليّة البندقيّة الاستيطانيّة الاستعماريّة وعنفها، وكَيْنونتهم الطفوليّة (جسدًا وعقلًا ونفسًا) الرافضة للعنف والمشدِّدة على الحياة (Shalhoub-Kevorkian, 2020). قدرة الأطفال على زعزعة المنظومة الاستعماريّة بسلوكهم، وكلماتهم الخاصّة، وتصميمهم (الواعي وغير الواعي) على تفكيك العنف الممَنْهَج ووضعه في سياق العنف الكولونياليّ لنزع الطفولة، هذه القدرة لا ينبغي إغفالها.

الطفل الفلسطينيّ، في حضوره وإرادته للعودة إلى الحياة كطفل، يزعزع مكوّنات الذاتيّة الصهيونيّة المرتكزة على نزع إنسانيّة الفلسطينيّ الأصلانيّ، وإنتاجه كَ "إرهابيّ" وَ "مجرم". محاولات الأطفال العديدة للمقاومة، في الكتابة، في الثبات، في الحركة، في المشاركة، في رفض اللا-طَفْلَنة، في التصميم على الحقّ بالحُلم، بالأمل في مستقبل العودة، يصيب المستعمِرَ بالصُّداع المعرفيّ، إثر التناقض بين المعرفة الكولونياليّة وسلوك وكلمات الأطفال مِن حوله المؤكِّدة على سيادة الأمل في مسارهم للوصول إلى السيادة السياسيّة. تشخيصُ العنف الكولونياليّ، والمقاومةُ، والرفضُ اليوميّ للعنف المُمَنْهَج، والأملُ في كلمات الأطفال، كلّ هذا يزعزع منظومة نزع الطفولة، ويتحدّى العنف المفْرِط ضدّ مسيرات العودة الفعليّة، والمأمولة.

المراجع

بَرْده، يَعيل. (2012). **بيروقراطيّة الاحتلال: نظام تصاريح الحركة في الضفّة الغربيّة 2000-2006**. تل أبيب: معهد فان لير في القدس ودار نشر هَكِيبوتْس هَمِئوحاد. [بالعبريّة]

بيادسة، صبحي. (2002). **باقة الغربيّة تاريخ لا يُنسى: مسيرة وتاريخ**. فلسطين. دار الهدى للطباعة والنشر.

الجزيرة. (2020). **880 حالة اعتقال لأطفال فلسطينيّين في 2019**. الجزيرة. مستقاة من: https://aja.me/xfvgy

المركز الفلسطينيّ لحقوق الإنسان. (2020). **تعرّض مدرسة في غزّة لقصف إسرائيليّ، المركز يطالب المجتمع الدوليّ بحماية المدنيّين الفلسطينيّين من الاعتداءات الإسرائيليّة ضدّهم**. مستقاة من: https://www.pchrgaza.org/ar/?p19461=

Abu El-Haj, Nadia. (2001). **Facts on the ground: Archaeological practice and territorial self-fashioning in Israeli society**. Chicago: University of Chicago Press.

Abu-Lughod, Lila. (2013). **Do Muslim women need saving?** Cambridge, MA: Harvard University Press.

Abu-Lughod, Lila & Sa'di, Ahmad H. (2007). Introduction: the claims of memory. In Sa'di, Ahmad H. & Abu-Lughod, Lila (Eds.). **Nakba: Palestine, 1948 and the claims of memory** (pp. 1-26). New York: Columbia University Press.

Abu-Rabia-Queder, Sarab. (2019). The biopolitics of declassing Palestinian professional women in a settler-colonial context. **Current Sociology**, 67(1). Pp. 141-158.

Alyan, Nisreen & Slutzker Amran, Sapir. (2017). **Arrest and detention of Palestinian minors in the Occupied Territories: 2015 facts and figures.** Retrieved from: https://law.acri.org.il/en/wp-content/uploads/2017/03/Arrest-of-Palestinian-Minors-.pdf.

Barakat, Rana. (2018). Writing/righting Palestine studies: Settler colonialism, indigenous sovereignty and resisting the ghost(s) of history. **Settler colonial studies**, 8(3). Pp. 349-363.

Battell Lowman, Emma & Barker, Adam. (2016). **Settler: Identity and colonialism in 21st century Canada**. Halifax: Fermwood.

B'Tselem. (2016a). **50 Days: More than 500 children: Facts and figures on fatalities in Gaza, summer 2014**. Retrieved from: https://www.btselem.org/press_releases/20160720_fatalities_in_gaza_conflict_2014.

B'Tselem. (2016b). **Collective punishment continues in central Hebron: Closed neighborhoods and shops closed and repeated checkpoint inspections**. Retrieved from: www.btselem.org/hebron/20160121_hebron_restrictions.

B'Tselem. (2020a). **Fatalities since operation Cast Lead**. Retrieved from: https://www.btselem.org/statistics/fatalities/after-cast-lead/by-date-of-event.

B'Tselem. (2020b). **Statistics on punitive house demolitions**. Retrieved from: https://www.btselem.org/punitive_demolitions/statistics.

B'Tselem. (2020c). **Demolition of houses and non-residential structures in East Jerusalem, 2004-2020**. Retrieved from: https://www.btselem.org/planning_and_building/east_jerusalem_statistics.

Churchill, Ward. (2004). **Kill the Indian, save the man: The genocidal impact of American Indian residential schools**. San Francisco, CA: City Lights.

Defense for Children International – Palestine & CUNY School of Law. (2019). **Submission to the UN commission of inquiry on the 2018 protests in the occupied Palestinian Territory concerning unlawful killing and use of excessive force by Israeli forces against Palestinian children**. Retrieved from: https://d3n8a8pro7vhmx.cloudfront.net/dcipalestine/pages/5218/attachments/original/1548306271/DCIP_HRGJ_Submission_to_COI_2018_Protests.pdf?1548306271

Defense for Children Palestine. (2020a). **Number of Palestinian girls in military detention**. Retrieved from: https://www.dci-palestine.org/palestinian_girls_in_israeli_detention.

Defense for Children Palestine. (2020b). **Distribution of Palestinian child fatalities according to circumstances of death**. Retrieved from: https://www.dci-palestine.org/child_fatalities_according_to_circumstances_of_death.

Defense for Children Palestine. (2021). **Distribution of Palestinian child fatalities by month**. Retrieved from: https://www.dci-palestine.org/child_fatalities_by_month.

De Leeuw, Sarah. (2009). 'If anything is to be done with the Indian, we must catch him very young': Colonial constructions of Aboriginal children and the geographies of Indian residential schooling in British Columbia, Canada. **Children's Geographies**, 7(2). Pp. 123-140.

Erakat, Noura. (2019). **Justice for some**. CA: Stanford University Press.

Esmeir, Samera. (2003). 1948: Law, history, memory. **Social text**, 21(2). Pp. 25-48.

Fanon, Frantz. (1986). **Black skin, white masks**. London: Pluto Press. (Original work published 1952)

Fanon, Frantz. (1963). **The wretched of the earth**. New York: Grove.

Giacaman, Rita. (2018). Reframing public health in wartime: From the biomedical model to the "wounds inside". **Journal of Palestine Studies**, 47(2). Pp. 9-27.

Giacaman, Rita; Shannon, Harry S.; Saab, Hana; Arya, Neil, & Boyce, Will. (2007). Individual and collective exposure to political violence: Palestinian adolescents coping with conflict. **European Journal of Public Health**, 17(4). Pp. 361-368.

Haj-Yahia, Muhammad M. (2008). Political violence in retrospect: Its effect on the mental health of Palestinian adolescents. **International Journal of Behavioral Development**, 32(4). Pp. 283-9.

Haj-Yahia, Muhammad M.; Greenbaum, Charles W., & Lahoud-Shoufany, Laila. (2021). Palestinian adolescents prolonged exposure to political violence, self-esteem, and post-traumatic stress symptoms. **Journal of interpersonal violence**, 36(9-10). Pp. 4137-4164.

Hammami, Rema. (2015). On (not) suffering at the checkpoint: Palestinian narrative strategies of surviving Israel's carceral geography. **borderlands**, 14(1). Pp. 1-17.

Hinton, Alexander L., Woolford, Andrew, & Benvenuto, Jeff. (2014). **Colonial genocide in indigenous North America**. Durham: Duke University Press.

Human Rights Watch. (2011). **Israel: New laws marginalize Palestinian Arab citizens**. Retrieved from: https://www.hrw.org/news/2011/03/30/israel-new-laws-marginalize-palestinian-arab-citizens.

Human Rights Watch. (2018). **Israel: Army demolishing West Bank schools could amount to war crimes**. Retrieved from: https://www.hrw.org/news/2018/04/25/israel-army-demolishing-west-bank-schools .

Jabareen, Hassan & Zaher, Sawsan. (2012, February 10). Israeli citizenship laws are unconstitutional. **JURIST: Legal News and Research**. Retrieved in December 4, 2021, from: http://jurist.org/hotline/2012/02/jabareen-zaher-israel-citizenship.php.

Jabareen, Yosef. (2017). The right to space production and the right to necessity: Insurgent versus legal rights of Palestinians in Jerusalem. **Planning Theory**, 16(1). Pp. 6–31

Jacobs, Margaret D. (2005). Maternal colonialism: White women and Indigenous child removal in the American West and Australia, 1880-1940. **Western Historical Quarterly**, 36(4). Pp. 453-476.

Jacobs, Margaret D. (2009). **White mother to a dark race: Settler colonialism, materialism, and the removal of Indigenous children in the American West and**

Australia, 1880-1940. Lincoln: University of Nebraska Press.

Jefferis, Danielle C. (2012). Institutionalizing statelessness: The revocation of residency rights of Palestinians in East Jerusalem. **International Journal of Refugee Law**, 24(2). Pp. 202-230.

Khalidi, Rashid. (2013). **Brokers of deceit: How the US has undermined peace in the Middle East**. MA: Beacon Press.

Laor, Amos & Jaraisy, Raghad. (2016). **Arrests, interrogations, and indictments of Palestinian minors in the Occupied Territories: Facts and figures for 2014**. Association for Civil Rights in Israel. Retrieved from: https://law.acri.org.il/en/wp-content/uploads/2016/02/arrests-minors-OPT2014-ENG.pdf.

Li, Darryl. (2006). The Gaza Strip as laboratory: Notes in the wake of disengagement. **Journal of Palestine Studies**, 35(2). Pp. 38–35.

Lykes, Brinton M. & Sibley, Erin. (2014). Liberation psychology and pragmatic solidarity: North–South collaborations through the Ignacio Martín-Baró fund. **Peace and Conflict: Journal of Peace Psychology**, 20(3). Pp. 209-226.

Makdisi, Saree. (2010). **Palestine inside out: An everyday occupation**. New York: WW Norton & Company.

Manna, Adel. (2017). **Nakba and survival: The story of the Palestinians who remained in Haifa and the Galilee, 1948 – 1956**. Jerusalem: Van-Leer Institute Press and Hakibbuts Hameuchad.

Marshall, David J. (2014). Save (us from) the children: Trauma, Palestinian childhood, and the production of governable subjects. **Children's Geographies**, 12(3). Pp. 281-296.

Masalha, Nur. (2012a). **Expulsion of the Palestinians: The concept of 'transfer' in Zionist political thought, 1882-1948**. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies.

Masalha, Nur. (2012b). **The Palestine Nakba: Decolonising history, narrating the subaltern, reclaiming memory**. New York: Zed Books.

Martín-Baró, Ignacio. (1989). Political violence and war as causes of psychosocial trauma in El Salvador. **International Journal of Mental Health**, 18(1). Pp. 3-20.

Martín-Baró, Ignacio. (1994). **Writings for a liberation psychology**. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Mbembe, Achille. (2001). **On the postcolony**. Berkeley, CA: University of California Press.

Mbembe, Achille. (2003). Necropolitics. **Public Culture**, 15(1). Pp. 11-40.

Moses, A. Dirk (Ed.). (2004). **Genocide and settler society: Frontier violence and stolen indigenous children in Australian history**. New York and Oxford: Berghahn Books.

Nasasra, Mansour. (2017). **The Naqab Bedouins: A century of politics and resistance**. New York: Columbia University Press.

Puar, Jasbir K. (2015). The 'Right' to maim: Disablement and inhumanist biopolitics in Palestine. **Borderlands**, 14(1). Pp. 1-27.

Puar, Jasbir K. (2017). **The right to maim: Debility, capacity, disability**. Durham, NC: Duke University.

Pugliese, Joseph. (2015). Forensic ecologies of occupied zones and geographies of dispossession: Gaza and occupied East Jerusalem. **Borderlands**, 14(1). Pp. 1–37.

Qouta, Samir R.; Palosaari, Esa; Diab, Marwan, & Punamäki, Raija-Leena. (2012). Intervention effectiveness among war-affected children: A cluster randomized controlled trial on improving mental health. **Journal of traumatic stress**, 25(3). Pp. 288-298.

Rabaia, Yoke, Saleh, Mahasin F., & Giacaman, Rita. (2014). Sick or sad? Supporting Palestinian children living in conditions of chronic political violence. **Children & Society**, 28(3). Pp. 172-181.

Raz-Krakotzkin, Amnon. (2021). Religion and nationalism in the Jewish and Zionist context. In Rouhana, Nadim N., & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). **When politics are sacralized: International comparative perspectives on religious claims and nationalism** (pp. 33-53). Cambridge: Cambridge University Press.

Reshet Beit. (2018, April 21). **This week's diary** (video). Kan. Retrieved from: www.kan.org.il/radio/player.aspx?ItemId=29159.

Rouhana, Nadim N. (2017). The psychopolitical foundations of ethnic privileges in the Jewish state. In Rouhana, Nadim N., & Huneidi, Sahar S. (Eds.). **Israel and its Palestinian citizens: Ethnic privileges in the Jewish state** (pp. 3-36). Cambridge: Cambridge University Press.

Rouhana, Nadim N. (2021). Religious claims and nationalism in Zionism: obscuring settler colonialism. In Rouhana, Nadim N., & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). **When politics are sacralized: International comparative perspectives on religious claims and nationalism** (pp. 54-87). Cambridge: Cambridge University Press.

Rouhana, Nadim N., & Shalhoub-Kevorkian, Nadera (Eds.). (2021). **When politics are sacralized: International comparative perspectives on religious claims and nationalism**. Cambridge: Cambridge University Press.

Sa'di, Ahmad H. (2016). **Thorough surveillance: The genesis of Israeli policies of population management, surveillance and political control towards the Palestinian minority**. Manchester: Manchester University Press.

Said, Edward W. (1979). Zionism from the standpoint of its victims. **Social Text**, 1. Pp. 7-58.

Salamanca, Jabary. (2011). Unplug and play: Manufacturing collapse in Gaza. **Human Geography**, 4(1). Pp. 22-37.

Save the Children. (2019). **Gaza protests one year on: Almost 3,000 children injured in Gaza protests required hospital treatment**. Retrieved from:

https://reliefweb.int/report/occupied-palestinian-territory/gaza-protests-one-year-almost-3000-children-injured-gaza.

Save the Children. (2021). **Hope under the rubble: The impact of Israel's home demolition policy on Palestinian children and their families**. Retrieved from:

https://reliefweb.int/sites/reliefweb.int/files/resources/Hope-Under-the-Rubble-4th-pp.pdf.

Sayigh, Rosemary. (2013). On the exclusion of the Palestinian Nakba from the "trauma genre". **Journal of Palestine Studies**, 43(1). Pp. 51–60.

Sayigh, Rosemary. (2015). Oral history, colonialist dispossession, and the state: the Palestinian case. **Settler Colonial Studies**, 5(3). Pp. 193-204.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2006). Negotiating the present, historicizing the future: Palestinian children speak about the Israeli separation wall. **American Behavioral Scientist**, 49(8). Pp. 1101-1124.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2008). The gendered nature of education under siege: a Palestinian feminist perspective. **International Journal of Lifelong Education**, 27(2). Pp. 179-200.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2009). The political economy of children's trauma: A case study of house demolition in Palestine. **Feminism & Psychology**, 19(3). Pp. 335-342.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2012a). Birthing in occupied east Jerusalem: Palestinian women's experience of pregnancy and delivery. **Jerusalem: YWCA.**

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2012b). Casting out "Citizenship". **An annual review of women's and gender studies**, 7. Pp. 47-59.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2014). Palestinian children as tools for 'legalized' state violence. **Borderlands**, 13(1). Pp. 1-24.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2015). **Security theology: Surveillance and the politics of fear**. Cambridge: Cambridge University Press.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2019). **Incarcerated childhood and the politics of unchilding**. Cambridge: Cambridge University Press.

Shalhoub-Kevorkian, Nadera. (2020). Gun to body: Mental health against unchilding. **International Journal of Applied Psychoanalytic Studies**, 17(2). Pp. 126-145.

Taussig, Michael. (1992). **The Nervous System**. London: Routledge.

United Nations Country Team – Occupied Palestinian Territory. (2016). **Leave No One Behind: A Perspective on Vulnerability and Structural Disadvantage in Palestine**. Retrieved from: https://unsco.unmissions.org/sites/default/files/cca_report_en.pdf, 44.

United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs. (2019). **Humanitarian Snapshot: Casualties in the Context of Demonstrations and Hostilities in Gaza – 30 March 2018 – 31 January 2019**. Retrieved from: https://www.ochaopt.org/content/humanitarian-snapshot-casualties-context-demonstrations-and-hostilities-gaza-30-march-2018.

Wolfe, Patrick. (2006). Settler colonialism and the elimination of the native. **Journal of Genocide Research**, 8(4). Pp. 387–409.

Zureik, Elia. (2010). Cross-cultural study of surveillance and privacy: Theoretical and empirical observations. In Zureik, Elia; Stalker, L. Harlin; Smith, Emily; Lyon, David & Chan, Yolance E. (Eds.). **Surveillance, privacy and the globalization of personal information** (pp. 348-360). McGill-Queen's University Press.

يأتي هذا الكتاب حصيلةً للمشروع الذي بادر إليه مدى الكرمل، والذي جمع من خلاله كوكبةً من الأكاديميّين والمحاضرين وطلبة دراسات عليا فلسطينيّين يدرسون في جميع أنحاء فلسطين ضمن ثلاث ورشات دراسيّة امتدّت كلّ منها على مدار سنة. جمَعَ هؤلاء الباحثين الانشغالُ السياسيُّ والأكاديميُّ في فهم الصهيونيّة بوصفها مشروع استعمار استيطانيّ، وفي بحث آليّات هذا المشروع وفرضيّاته وأُسُسه الفكريّة والدينيّة والسياسيّة. كذلك ناقشت الورشات التحوّلات التي مرّ ويمرّ فيها المشروع الصهيونيّ جرّاء فشله، منذ بداياته الأولى، في إخضاع المقاومة الفلسطينيّة المستمرّة على جميع أشكالها.

يأتي كُتّاب وكاتبات المقالات من حقول معرفيّة مختلفة، ويعيشون سياقات جغرافيّة وسياسيّة وقانونيّة وأكاديميّة مختلفة. قارَبَ بعض الكتّاب الصهيونيّةَ ومشروعَها الاستعماريَّ مقارَبةً تاريخيّة، بينما قرأها آخَرون من زاوية ممارساتها على من يعيش في ظلّ منظومتها إمّا داخل أرضه، وإمّا مهجَّرًا داخل بلده، أو خارجها. بعض المقالات بحثت في مقاومة المشروع، أو في الوعي المقاوِم لهذا المشروع. وقد عُنِيَ بعضها الآخَر بتحليل المنظومة نفسها، واشتباك بُعدها الاستعماريّ الاستيطانيّ مع البعدَيْن الدينيّ والقوميّ أو الإنتاج المعرفيّ حولها من قِبل مؤسَّستها الأكاديميّة أو مقاوميها. وقد قرأتْ بعضُ المقالات هذا المشروعَ قراءةً مقارِنةً مع سياقات عربيّة أو عالميّة أخرى.

يُسهم الكتاب في النقاش الدائر حول مكان دراسات الاستعمار الاستيطانيّ في فهم طبيعة الدولة الإسرائيليّة، وفي تطوير إستراتيجيّات فلسطينيّة للتحرُّر على ضوء هذا الفهم.

مدى الكرمل – المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية، هو مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تأسست عام 2000 في مدينة حيفا. يهتم مدى الكرمل بالتنمية البشرية والقومية في المجتمع، ويهدف إلى تشجيع البحث التطبيقي والنظري حول الفلسطينيين في إسرائيل. ويركز مدى الكرمل على سياسة الحكومة والاحتياجات الاجتماعية والتربوية والاقتصادية للمواطنين الفلسطينيين في إسرائيل وعلى الهوية القومية والمواطنة الديمقراطية. ويسعى المركز إلى توفير قاعدة مؤسساتية ومناخ فكري لدراسة احتياجات الفلسطينيين في إسرائيل ومستقبلهم الجماعي وعلاقتهم بإسرائيل وبباقي أجزاء الشعب الفلسطيني والعالم العربي. كما يسعى إلى تدريب جيل جديد من علماء الاجتماع والسياسة الفلسطينيين على توجهات نقدية في الدراسات الفلسطينية والإسرائيلية.

Zionism and Settler Colonialism: Palestinian Approaches
Edited by: Nadim N. Rouhana and Areen Hawari
ISBN: 978-965-7308-28-8